بنت بطوطة

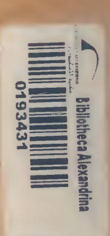
مِن تاريخ

هارون الرشيد والبرامكة

ترجمة عن الفرنسية

الأستاذ د. ه.

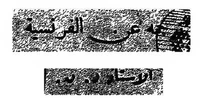
مطبعة حلبي بمصر

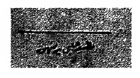




بنت بطوطة









بيان وايضاح

أهديك أيها القارئ تحية وسلاما

وبعد فانى كتبت هذه الصفحات وما قصدت بها مهاجمة أو دفاعا ولا أدعى أنى جئت فيها بجديد كان مجهولا .

يعرف جميع الناس هارون الرشيد وأخته العباسه ووزيره المقرب جعفر البرمكى كما يعرف جميع الناس تلك المأساة التى انتهت بنكبة البرامكة ولكن ما من أحد يعرف الاسباب الحقيقية التى أدت إلى هذه النكبة وأنا أيضا أجهل تلك الاسباب .

ولئن كنا نعرف جميعا هارون الرشيد والعباسة وجعفر ونعرفهم تمام المعرفة بوصفهم أشخاصاً دخلوا فى ذمة التاريخ إلا أن لهم نواحى لا نسبر غورها ومما يجعلها بمنأى عن ادراكنا إن من المؤرخين من شاد باعمالهم ومنهم من تولاهم بالذم ظلما مزيفين التاريخ تبعا للأهواء .

ولقد أردت أن أستعرض تاريخهم فى شكل جديد وأضفى على اشخاصهم صـــورا تلائم الافكار الحديثة وتتفق والنفسية البشرية . وتوخيت تجريد التـاريخ من الخيال والزلفى فهم كانوا كبار النفوس حقا ولكنهم كانوا أيضا صغارها إذكانت لهم عظمة الانسان وضعفه وكانت لهم جاذبيته وعيوبه واخطـــاؤه وكل ذلك يبعث على تقريب الشقة بيننا وبينهم .

إنى ليعوزنى حذق المؤرخين وقوة إقناع الفلاسفة وفراسة علماء النفس . فمعذرة عما أكون وقعت فيه من أخطاء . ولست إلا راوية متواضعة فاذا راعتك قصتى التاريخية فحسبى من ذلك حظا وسعدا .

وإنى استميحك عفوا عن الاغلاط التى يحتمل أن تكون فى الكتابة أيها القارىء الكريم ؟

بنت بطوطه

البحيرة فى شهر رجب سنة ١٣٦٣

حضرة صاحبة العصمة النابغة النبيلة

بِنتُ بَطوطَه

كتابُكِ فى « الرشيد » كتابُ صِدقٍ
هو التاريخُ رُدَّ الى الحقيقه

على أحداثهِ ارسلتِ ضوءاً
تغلغلَ في مَهَاويها السَّحيقه

بأَخْذٍ عن ثِقاتِ الرأىِ فيها
هَداكِ الى روابِطِها الوثيقه

فلم تُخْطِئْكِ فَهْماً واعتباراً
مَراميها الجليلةِ والدقيقه

وكم مَغْزًى خَفِيّ أَبرَزَتْهُ
عبارتُك المُصَفَّاةُ الأَنِيقه

وكم أَحْجِيَّةٍ تَأْبَى حُـــلولاً
جَلا لكِ حَلَّها وَحْيُ السَّليقه
تَـكادُ بِوَصْفِكِ الآثــارُ تَحْيَ
وقد جَدَّتْ رَوَائِعُهـــا العَتيقه
فعَادَت مثلَما كانت قديمـــاً
بإعجابٍ وإكبـــارٍ خَليقه
رَعَى الله التّى كَتَبَتْ لِترْضَى
بنفسٍ حُرَّةٍ ويدٍ طَليقـــه
ولِلآدابِ أحسابٌ غـــوالٍ
اذا اتَّصَلت بأَنسابٍ عريقه

القاهرة فى شهر اغسطس ١٩٤٤ خليل مطران

من تاريخ هارون الرشيد والبرامكة

أسرة بنى العباس

١

حروب المبادىء ـ العلويون ـ الدعوة العباسية ـ خاتمة الأمويين وانهيارهم ـ أسرة العباسيين ـ الخليفة المنصور ـ تأسيس بغداد ـ الوزراء البرامكة ـ اصطباغ الامبراطورية بالصبغة الايرانية ـ المالية والبوليس السياسى والضرائب ـ السفراء الاجانب والمؤرخون ـ الخليفة المهدى ـ الدسائس ـ الخيزران ـ الهادى واغتياله ـ فجر عهد هارون الرشيد .

كيف وصل العباسيون إلى أريكة الحكم ؟ . . . .

ونحن إذ نتحدث اليكم عن العباسيين نرى من واجبنا قبل كل شىء أن نستعرض الدسائس الدينية والسياسية التى عجلت فى نهاية أسرة عظيمة الشأن عزيزة الجانب ونحللها عسى أن نحل عقدتها ، وإن كان نجم تلك الأسرة بدأ فى الأفول وسلطانها قد أوشك على الانهيار. أما تلك الأسرة

فهى أسرة الأمويين وأما التى احتلت مكانتها فهى أسرة العباسيين .

وإنا إذا حاولنا أن نرجع إلى أصل هذه الدسائس الدينية والسياسية فقد نقدم على مهمة عسيرة بل شاقة عقيمة لأننا قد نقع فى أشد الافتراضات تناقضاً وأكثرها تباينا وينتهى بنا الامر إلى طرق باب التقاليد التى كثيراً ما يتلفها المحدثون ويشوهها الرواة بالتمويه والأكاذيب ولأن مؤرخى ذلك العهد وهم مداحون أكثر منهم مؤرخين يطرون هذا ويتزلفون إلى ذلك من الملوك والأمراء والمتخاصمين قد نفثوا سم أحقادهم أو تركوا طابع تحمسهم القوى وميولهم الشخصية فى الأحداث التاريخية فشوهوا أصولها وأسبابها تشويهاً عجيباً تختلط معه الحقائق بالاوهام فخلفوا لنا ذكرى حوادث هى أقرب إلى الأوهام منها إلى الحقائق .

ورب سائل عما أثار هذه الأحداث إذ أنه منذ أغتيال الخليفة على عام ٦٦١ فى مدينة الكوفة . أو منذ اغتصاب معاوية للحكم أو عدم اغتصابه له وقيام أسرة الأمويين وإنشاء نظام الأوتوقراطية والحكم المطلق الجديد وهو فى الواقع نظام قديم كالعالم . فان القتال كان سجالا لم يكف لحظة واحدة ولم يهدأ أواره .

لقد كانوا يتقاتلون فى سبيل على بعد مصرعه وفى سبيل نجليه حتى بعد مقتل الحسين فى كربلاء وكانوا يتقاتلون ضد على فى سبيل معاوية وضد معاوية فى سبيل آل على وضد آل معاوية فى سبيل سواه . لقد استمر القتال فيما بينهم زهاء مائة عام منذ فجر القرن السابع حتى أواخر القرن الثامن . ولسوف يتقاتلون دائماً أبداً .... وليس غير الله ليعلم السبب !. أما المؤرخون فانهم لم يقفوا على السبب قط ولن يقفوا عليه لأن المتقاتلين أنفسهم قد انتهى

بهم الأمر مع طول أمد القتال بأن نسوا لماذا كانوا
يتقاتلون أو فى سبيل من يتقاتلون ؟!.. وإنا الآن لنتساءل
كذلك لم عساهم كانوا يتقاتلون ؟!

وذلك الشيء الذى كانوا يتقاتلون فى سبيله لم يكن فى
منشئه إلا نتيجة للدسيسة التى كانت تحمل تحت طياتها
رغبات فرد واحد أو أرادة زعيم واحد أو فى نفس
الوقت مطامع طغمه من الرجال أو أمانى فئة كثيرة من
الرجال يؤلف منهم شعب . قد يكون ذلك . ولكن مما هو
خليق بالملاحظة أنه إذا كانت شعوب ذلك العهد تستخدم
فى قتالها ذات الطريقة التى نقاتل بها اليوم فانها لم تجرد
السلاح لأمر يتعلق بالحدود أو بسبب يمت إلى الجنسيات
فلم تكن للاسلام آنئذ حدود أو جنسيات مختلفة إذ لم يكن
هناك تمييز بين عربى ومصرى وإيرانى وهندى وتركى
فكلهم كانوا مسلمين على حذ سواء . على أن الآراء فيما بينهم

كانت متباينة متضاربة . فكان القتال ينشب فى سبيل العقائد التى كانت تتحول عندهم إلى مبادىء . وكثيراً ما كانت تلك العقائد تنبت تارة كالعشب الفاسد أو تزدهر طوراً كالازهار النادرة على حد تفكير كل فرد منهم .

وإذن فانهم كانوا يتقاتلون فى سبيل العقائد أو فى سبيل عقيدة واحدة هى عقيدة الشيعة . وما الشيعة إلا فكرة تولدت من فكرة أخرى . هى الانتقام!. ثم تطورت تلك الشيعة حتى أصبحت طائفة دينية وانتهت بأن غدت مع الزمن حزباً سياسياً لم يلبث أن امتد واتسع حتى صار قوة عظيمة هائلة . كما أنها اتخذت حجة تذرع بها فى منتصف القرن الثامن عدد كبير من المضطهدين والمنبوذين الأمويين وهم ان لم يكونوا من الشيعيين إلا أنهم انضموا إلى قضيتهم أملا فى شفاء غليل انتقامهم الشخصى .

أضف إلى هذا الانتقام المطالب التى تقدم بها أنصار

آل على أو العلويون للحصول على حقوق على فى الخلافة وهى حقوق كان العلويون قد تنازلوا عنها ولكن أنصارهم استمروا فى المطالبة بها . ولم يكفوا عن مطالبتهم بها لحظة واحدة منذ عهد معاوية ويزيد الأول .

أما العباسيون أي آل عباس بن عبد المطلب . عم النبى صلى الله عليه وسلم . فانهم قد استسلموا لمصيرهم . وسواء أكان استسلامهم عن اخلاص أو أنهم تظاهروا به عن رياء ودهاء فانهم لم يتظلموا من شيء فكانوا بذلك على نقيض العلويين يعيشون فى عزلة تامة عن كل نشاط سياسى وكانت حياتهم بسيطة لا تعدو حياة العامة من الشعب . فكانوا أحياناً يقضونها فى المدينة وغالباً فى خراسان حيث احتجبوا عن عالم السياسة فلم يمسوا سلامة أحد أو يضروا بطمأنينة البلاد .

وانتشرت الشيعة فى خراسان انتشاراً سريعاً حتى

أصبحت أو آضت البلاد وكرا للمعارضة العنيفة . وكان الأمويون فيها مكروهين بوجه خاص مع كثرة أنصار العلويين . ولذلك كثرت الفتن والحروب الأهلية التى كان شررها يتطاير من خراسان فيندلع لهيب القلاقل والاضطرابات فى جميع أنحاء الامبراطورية الأموية .

وقد كان هؤلاء الانصار هم الذين ثاروا على الامبراطورية الاموية وعملوا على دك صرحها . والعجيب فى ذلك أنهم لم يهدموها لصالح العلويين بل لمصلحة العباسيين الذين كانوا لا يمتون إلى قضيتهم بأية صلة .

فكيف وقعت تلك الظاهرة الغريبة ؟ هنا أيضاً تضللنا التقاليد فاذا هى امتزجت بالخرافة والوهم فانها تجعل من مزيج المستحيل والجمال والحقيقة سياجا تحوط به الوقائع والاسباب لتقودنا صاغرين مشدوهين فى ديجور تلك الظلمة المدلهمة ثم تقف بنا أمام وقائع تاريخية لا تقبل

جدلا أو نزاعا ونحن خاشعون مستسلمون .

ففى أوائل القرن الثامن كان حزب الراونديين أظهر الاحزاب السياسية فى بلاد فارس وخراسان وأشدها بطشاً . وكان الراونديون انصار محمد بن الحنفية أحد أنجال الخليفة على . ويؤخذ من التقاليد ان الخليفة على عهد إلى هذا الاخير بزمام سلطاته بصفته اماما . وان أبا هاشم بن محمد بن الحنفية قد عهد بتلك السلطات بدوره إلى على حفيد عباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . وورثها عنه نجله محمد بن على بن عباس بن عبد المطلب .

ولما كان انصاره فى ذلك العهد اكثر نفوذا فقد حرم العلويون ولا سيما آل الحسين [1] اكبر أنجال الخليفة على من حقوقهم لمصلحة أسرة العباسيين . وكان ذلك فاتحة الدعوة العباسية . وفى مستهل حكم مروان الثانى آخر

---

(١) سيدنا الحسين الذى يوجد ضريحه فى القاهرة

الخلفاء الامويين عام ٧٤٣ توفى الامام محمد بن على فخلفه نجله ابراهيم .

وفى عام ٧٤٤ كانت بلاد خراسان تتمخض باحداث جسام بفضل بن معن وأبى مسلم الراوندى فمهد الطريق إلى الدعوة العباسية وكان ابن معن حاكم السند السابق وعدو الخليفة مروان الثانى الذى لم يحسن الانتفاع بخدماته ولا مكافأته بما هو جدير بمكانته . يتحين الفرص للقيام بثورة ضد الامبراطورية . فقدم الكوفة وانضم إلى الدعوة العباسية . ثم أضرم نار الثورة فى خراسان وجمع أنصاره فى مدينة مرو ونادى بابراهيم خليفة وأميراً للمؤمنين عام ٧٤٤ وهكذا أصبحت الكوفة مركزاً لمعارضة تأوى أنصار العلويين الذين كانوا فى الواقع يعملون لصالح العباسيين .

وفى عام ٧٤٥ توفى ابن معن فجأة فكانت وفاته

خسارة على العباسيين ولكن الامام ابراهيم أحسن اختيار الرجل الذى تتطلبه الظروف فأرسل أبا مسلم الراوندى إلى خراسان لمواصلة أعمال ابن معن فيها .

وقد وفق أبو مسلم فى حشد جيش من العرب والايرانيين ورفع لأول مرة لواء العباسيين الأسود وأباد الحملة التى كان الخليفة مروان الثانى قد جردها ضد الامام ابراهيم المطالب بالخلافة . على أن هذا النصر لم يتوجه نصر ثان فقد هزم أبو مسلم بدوره بالقرب من الكوفة بعد بضعة شهور واعتقل الأمام ابراهيم وألقى فى السجن بأمر من الخليفة مروان الثانى .

وأوشكت الدائرة أن تدور على العباسيين لو لم ينج أبو مسلم بأعجوبة من مطاردة الأمويين . وقد تمكن من الهرب وجمع أنصاره وحشد جيوشه ونادى بأبى العباس شقيق ابراهيم الثانى خليفة على المسلمين فى الثانى عشر من

شهر ربيع الثانى عام ١٣٢ (٢٨ نوفمبر ٧٥٠) ولأول مرة فى التاريخ ذكر اسم الخليفة العباسى فى صلوات مسجد الكوفة الاكبر واستؤنف القتال بشدة وعنف لم يسبق لهما مثيل .

وعندئذ بدأ مركز الأمويين يزداد تحرجا يوما إثر يوم فغادر مروان الثانى حران على رأس جيش من السوريين فى طريقه إلى الموصل لملاقاة جيش أبى مسلم .

وهزم الخليفة الأموى شر هزيمة على الضفة اليسرى من نهر الزاب الاكبر فى معركة ضروس دامت من اليوم الثانى من شهر جماد الثانى عام ١٣٢ (٢٨ يناير ٧٥٠) حتى اليوم الحادى عشر منه . فارتد مروان الثانى مع فلول جيشه إلى حران ومنها إلى دمشق فحيفا ثم إلى الفرما على الساحل المصرى وتخطاها لاجئا إلى الوجه القبلى بالقطر المصرى تطارده جيوش العباسيين الظافرة . وفى تلك الجهة النائية

لقى آخر الخلفاء الأمويين حتفه وهو يزود عن نفسه إبان شهر أغسطس من عام ٧٥٠ فجزت رأسه وأرسلت إلى أبى العباس فدالت بمقتله دولة الامويين العتيدة .

واستولت جيوش العباسيين على بلاد سوريا . سوريا المخلصة للأمويين التى حاولت أن تثور ولكن بغير ماجدوى إذ اخمدت ثورتها فى بحر من الدماء الطاهرة ففى جميع مدنها وضع السيف فى أفراد أسرة الامويين وأنصارهم على حد قول الشاعر سديف :—

لا يغرنك ما ترى من رجال

إن تحت الضلوع داء دوياً

فضع السيف وارفع السوط حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويا

ولم ينج من المذبحة غير أموى واحد هو الفارس

المغوار عبدالرحمن الأول . فقد تمكن من الفرار ولجأ إلى أسبانيا حيث أسس مملكة الأمويين الزاهرة فى قرطبة .

أما مدينة دمشق العامرة مقر الامبراطورية الأموية فقد عملت فيها أيادى النهب والتخريب وبالغ بنو العباس فى استئصال شأفة بنى أمية حتى ابتزوا جميع أموالهم ونبشوا قبورهم ما عدا قبري معاوية والخليفة التقى الورع عمر الثانى بن عبدالعزيز .

وهكذا تربع بنو العباس على عرش مملكة من أعظم ممالك العالم على حساب العلويين وبفضل الشيعيين ودهاء الراونديين وخبثهم .

لم يشأ أبو العباس أن يتخذ من دمشق مدينة الأمويين عاصمة للملكه فقد فضل عليها الانبار وهى مدينة فارسية تقع على ضفاف نهر الفرات حيث لقى حتفه مصاباً بداء الجدرى وهو فى الثلاثين من عمره أى بعد انقضاء أربعة أعوام على

ارتقائه العرش . فخلفه شقيقه الثانى أبو جعفر عام ١٣٦ هـ ٧٥٤ م .

وأول ما أقدم عليه أبو جعفر الملقب بالمنصور بعد أن أخمد نيران الثورة السورية بصورة وحشية هو التخلص من أبى مسلم بارتكاب جريمة مخزية شنعاء !

فأف لها من مكافأة على اخلاص ذلك الرجل الذى عرف كيف يدير قضية العباسيين بمهارة وحنكة ويقودها إلى تلك الخاتمة الباهرة .

وما أن خلا الجو للمنصور بعد مقتل شاهد يضايقه كأبى مسلم حتى قلب أوضاع النظم القديمة فى امبراطوريته وأخذ ينظم أمور دولته طبقاً لأفكاره مستعيناً بأسرة البرامكة الفارسية العظيمة التى أمدته بما كان يحتاج اليه من المديرين .

وبدأت مع خالد البرمكى رئيس وزراء المنصور

سلالة الوزراء فى الحكم . وكان عهد أولئك الوزراء فاتحة عهد استعباد ذهبي للخلفاء العباسيين إذ أنهم لم يتمتعوا من العرش إلا بظله ومن الملك إلا بصولجانه وتاجه إلى أن جاء هارون الرشيد ووضع حداً لسلطة الوزراء الواسعة بدافع من الحسد والعزة النفسية .

وقد اتخذت الخلافة طابعاً فارسيا بحتا بمجىء آل عباس إلى الحكم وكان أنشاء مدينة بغداد . وهذا الاسم من الالفاظ الفارسية البحته فاتحة عهد جديد هو عهد صبغ الامبراطورية العربية بالصبغة الايرانية .

كانت مدينة بغداد وليدة نزعة من نزعات المنصور . فقد حدث فى يوم من أيام عام ١٤٢ (٧٦٢) إذ كان الخليفة يسير على ضفاف نهر الدجلة ان راعه منظر حديقة زاهرة غناء رأي فيها أحد النساك يجنى ثمارها وأزهارها بهدوء وطمأنينة فاستقر رأيه فى الحال على تشييد خلوة

للراحة والاستجمام فى هذا المكان الهادى. وأحاط الوزير خالد البرمكى قصر مولاه الجديد بمدينة ساحرة تجلت فيها عبقرية المهندسين الفرس ومواهبهم من خيال وابتكار فابتدعوا تلك المجموعة المتناسقة من القباب الشامخة والواجهات والاروقة والعمد التى أوصى بها اليهم من الساسانيين المندثر. كما أنهم خلقوا هذا الطراز المهيب الدقيق حيث كان الرخام الملون والخزف المطلى والفسيفساء وأشغال البرونز تتناسق وتمتزج بما امتاز به الفن العربى من صناعة الاخشاب المخرمة فتتمخض عن أعتاب دقيقة وأقواس عظيمة لم تجار فى دقة صنعها ولم تضارع.

وكان أولئك الفنانون الفرس ايضاً. مع ما يمتازون به من حب للازهار. هم الذين وضعوا تصميمات حدائق بغداد البديعة ونظموها بعناية حى بدت غاية فى الابداع

وحرصوا على أن تمتد على شكل فنى ومرتفعات متناسقة وحددوا أحواض الوسين والقرنفل والياسمين والورد حول الأكشاك الساحرة وأمام جداول المياه الساطعة حيث تتلألأ نوافير البلور المنحوت .

ولسوف تبقى تلك الحدائق الغناء ذات الممرات المفروشة بالفسيفساء المحاطة بأشجار السرو التى يتغنى بها الشعراء محط إعجاب المسافرين ورجال الأدب والمؤرخين فى ذلك العصر عهداً طويلا .

لم تؤثر مدينة قديمة ، مع استثناء بيزنطه ، خلال أجيال عديدة على مخيلة العالم بأسره تأثير مدينة بغداد . ولسوف تمتد شهرتها فتعم أوروبا . وإذ ذاك يتدفق عليها سيل الغربيين مأخوذين بجمالها وثقافتها الواسعة الضافية ويسعون إلى مشاهدة تلك العاصمة الشهيرة .

وإلى جانب ذلك يجب علينا أن نذكر أن صبغ بغداد

بالصبغة الايرانية تدريجياً وبطريقة منتظمة مع تطورها وازدهارها ســوف يحول تيار الفكر العربى ويؤثر فى عقليته تأثيراً يكاد يكون شاملا .

ولسوف تبعث اللغة العربية وتخلد . ولسوف ترق أساليب تلك اللغة وتلين عباراتها وتكتسب عذوبة ساحرة باحتكاكها بالفكر الفارسى ورقته السامية . ولسوف يتأثر الأدب بأكمله وفى جميع نواحيه وتطوراته فيكتسب الشعر العربى حساسية جديدة ويبدأ عصر رومانتيكى تظل ذكرى نعومته عالقة بالاذهان مع الزمن . ولسوف تسير الثقافة العربية الفارسية سيرها الظافر فتدرك قمة الكمال والمجد فى عهد المأمون ثم تتخطى هذا العهد وذلك العصر الذهبى حتى يسخر بها القدر ويأتى عهد تصطدم فيه ببرابرة المغول فتتزعزع أركانها وتتقوض .

وقد عدل المنصور مختلف نظم الدولة متأثراً بنفوذ

البرامكة . فقد كان نظام البريد مثلا قائماً منذ عهد الخليفة معاوية مؤسس الأسرة الأموية فهو الذى أنشأه ونظم إدارته فجاء المنصور العباسى وعمل على توسيع نطاقه وتعميمه إذ ألحق به نظام « البوليس السياسى الأعلى » .

فقد عهد إلى مديرى البريد فى الأقاليم بأن يوافوه فى كل شهر أو فى كل أسبوعين بل فى كل يوم بتقارير رسمية وسرية ليطلع عليها المجلس الخاص أو ديوان الخليفة الخاص ويقف منها على جميع وجوه النشاط السياسى أو الاجتماعى التى كان يبديها الخاصة والعامة فى جميع أنحاء تلك الامبراطورية المترامية الأطراف ويتسنى لها تلافى المؤمرات واكتشافها واحباط الدسائس وقطع دابرها

وقد عظم نفوذ أولئك المديرين بطبيعة الحال واتسع نطاق سلطتهم فأصبحوا عمالا خطيرين بفضل ما يتجمع لديهم من الاستعلامات واشرافهم على مجرى الحوادث

عن كثب بحيث كان حكام الاقاليم والولاة الذين كان الخلفاء يستبدلونهم خوفا من منافستهم وعلو شأنهم واتساع نفوذهم يحسبون لهم حساباً كبيراً ويتزلفون اليهم ليأمنوا شرهم لا سيما وأن رجال البوليس السياسى كانوا لا يخضعون لنفوذ السلطات المحلية بل كانوا تابعين للسلطة المركزية والديوان الخاص أي للخليفة نفسه .

قد تقولون أن هذا ضرب من ضروب الجاسوسية . أجل . ماهى إلا جاسوسية سياسية ابتدعتها أسرة للمحافظة على سلامة الدولة وكيانها إبان سيطرتها على امبراطورية مترامية الاطراف تقلب على عرشها ملوك من مختلف الاسر وتداولتها الايدى عن طريق المؤامرات والدسائس والمفاجآت المدهشة الجريئة . وأن وصول دولة العباسيين أنفسهم إلى الحكم لخير مثال على ذلك .

لم يكن العباسيون على شيء من الكفاءة الحربية ولكنهم .

على نقيض ذلك . كانوا يتمتعون بنزعة السياسة وموهبة الحرية القائمة على الخبرة على أنهم إذا كانوا قد استطاعوا أن يفرضوا احترام سلطتهم وسلطانهم بنفوذ حكومتهم وشدتها . فقد تمكنوا كذلك من توطيد دعائم ملكهم برجاحة عقلهم وحنكتهم التى ساعدتهم على إنشاء شبكة من مختلف أنواع التجسس وأوضاعه المتشعبة . وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك التدابير والاحتياطات فى بدئها على شيء من الغلو أو الأفراط . وخليق بنا أن نعترف بذلك إلى أن جاء ذاك اليوم الذى تطورت فيه فأصبحت خطراً حقيقياً وهذا ما حدث فيما بعد فقد إتسعت تلك المراقبة لدرجة لم يستطع معها الخلفاء أنفسهم أن ينجوا من سيطرتها أو التحرر من سلطتها مما اضطر معه الخليفة هارون الرشيد إلى اتخاذ تدابير عاجلة غاية فى الشدة للتحرر منها واسترداد حرية العمل .

•

وقد أنشأ البرامكة عددا من الدواوين المختلفة وعهدوا اليها بمراقبة التجار والمسافرين والأجانب الذين يدخلون البلاد ويغادرونها . ولم تكن تلك الدواوين إلا بمثابة « مكاتب لجوازات السفر » وهى نوع آخر من الاحتياطات السياسية فكانت الى جانب دورها السياسى تلعب دورا ماليا لتحصيلها رسوما على كل جواز يحمله الاجانب بدخول أراضى الامبراطورية على أنه قد استثنى من تلك القيود ضيوف الدولة والممثلين السياسيين للدول التى تربطها علاقات وثيقة بالامبراطورية .

ولم يكن التجار وحدهم هم الذين يفدون على تلك البلاد فهناك أيضا الفضوليون أو بتعبير آخر السياح . ولم يكن لهؤلاء السياح الذين كانو يتقاطرون من كل حدب وصوب من جميع أنحاء العالم المتمدين هم إلا رفع أنوفهم باعجاب نحو الاثارات الفاخرة والأشياء التى كانت نجهلها

بلادهم لدرسها والتعليق عليهـــا ثم بعد ذلك وصفها فى كتاباتهم وأخبارهم .

فتلك المراجع القديمة يونانية كانت أم لاتينية أو عربية التى لا ينضب معينها من مختلف البيـانات والمعلومات لهى كثيرة الشبه بما نطلق عليها فى عهدنا « صاحبة الجـــلالة الصحافة » .

إن المجتمع الانسانى لم يتغير كثيراً منـذ القرن الثامن أو ماقبله على أن رجال ذاك العهد كانوا يضعون كثيراً من الظرف واللباقة وسلامة الذوق والتأنى فى إنجاز ما يفعـله رجال اليوم بتلك السرعة الرهيبة التى قد تخـلو من بعض السحر وما ذلك إلا لأن رجال اليـوم قد استعاضوا عن الوسائل الطبيعية والعادية بالعجـلات والمحركات وجعلوا حياتهم أشبه بآلة ميكانيكية صماء . وذهبوا حتى إلى المتاجرة بمثلهم العليا أما عن روح النقد وقوة الملاحظة . والتعطش

إلى العلم والمعرفة . فرجال عهدنا لا يختلفون فى ذلك كله أيضاً عن رجال العصور الغابرة ولا يمتازون عنهم بشيء .

ولقد حان وقت لم يكن فيه من اللائق بالمرء أن يحسن التكلم باللغة العربية ويجيدها فحسب . بل كان ذلك واجباً عليه . ويقول المؤرخ الفرنسى « هيوارت » " HUART " فيما كتبه عن تاريخ العرب أن الاقبال على اللغة العربية كان كبيراً من الأجانب الذين كانوا يرغبون فى استيعاب أصولها والوقوف على أسرارها وأساليبها وطريقة التعبير بها والتمتع بثقافة العرب وفلسفتهم وكانت قد بلغت فى ذاك العصر أوجها .

وفضلا عن ملوك الصقليين [1] النورمانديين « الذين كانوا يتكلمون لغة الكفار » ويطلبون إليهم خدمات علمية جليلة . فانى سأورد لكم فيما يلى مثل مستشرق آخر

(١) مملكة الصقليين مملكة قديمة كانت تشتمل على صقلية ونابولى

مولع بالشرق هو ذلك الرجـــل الغريب الذى عاش فى القرن الثالث عشر أعنى به فردريك الثانى حفيـــد الامبراطور باربروس أعظم ملوك الغرب منذ عهـــد شارلمان الذى ضم إلى الامبراطورية الرومانيـة المقدسة شمال إيطاليا ومملكة آرل ثم مملكة صقلية .

فقد كان هذا القائد الجاحد العجيب للحرب الصليبية السادسة عدواً للاسلام على أنه كان فى الوقت نفسه مولعاً باللغة العربية إلى حد الجنون فقد أنشأ فى مدينة لوسيرا (١) مدرسة كان العرب يلقنون فيها العلوم باللغة العربية . كما أنه جمع حوله علماء العرب والفلكيين والاطباء والموسيقيين

---

(١) لوسيرا ــ مدينة لوسيرا القديمة إحدى مدن مملكة نابولى فى مقاطعة « كابيتانات » وهى تقع على بعد ١٧ كيلومترا شمال غربى فودجيا ويبلغ عدد سكانها ١٢ ألف نسمة . وفيها أسقفية ومحكمة عليا للجنايات ومحكمة مدنية ومدرسه ملكية ومكتبة وكاندرائية جميلة ومجموعات ثمينة من الأوسمة والتحف الأثرية وقد كانت مدينة السامنيين (Samnites) قديما ويقال أن =

منهم بل وقد اتخذ من العرب خدما له .

ويقول لنا المؤرخ « روتلان » " ROTHELIN " أن الامبراطـــور كان يستأنس بالكفار ويحبهم حباً عظيما بحيث أنه كان يختار من بينهم مستشاريه وخدمه .

وقد روى لنا « ماتيو بارى » " MATHIEU PARIS " أن المؤذن كان يدعو إلى الصلاة فى معسكره حتى انتهى الأمر بالبابا وأمراء المسيحية الآخرين بالتساؤل عما إذا كان الامبراطور قد اعتنق المذهب المحمدى سراً ؟!...

هل كان « فردريك الثانى هوينشتوفين » " FRÉDRIC VON HOHENSTAUFEN " مسلماً ؟ إن فى هذا الافتراض

= ديوميدوس وضع أسسها غربى أبوليا وهى مشهورة بجمال أصوافها . وقد استولى عليها الرومانيون فى عهد بونسيوس هيرنيوس عام ٣٢٠ قبل المسيح ودمرت عن آخرها على أثر ثورة ثم أعيد تشييدها . وفى عهد سترابون كانت معالمها قد اندثرت واستخدمها اللومبارديون بعد ذلك مركزاً أماميا لهم . وفى عام ٦٦٥ استولى عليها امبراطور الشرق كونستان الثانى =

ما يضحك لا لشيء إلا لأن فردريك كان أشد الرجال الحادا وجحوداً بالايمان فيجب ألا نرى فى هذا الطابع الشرقى الذى تظاهر به أمام معاصريه الذين تملكتهم الدهشة وعراهم الذهول إلا ميلا شديداً منه نحو عالم جديد مجهول واعجاباً لا نظير له بثقافة عالية تفوق ثقافة أوربا فى عصره كل التفوق .

على أن سلوكه هذا كان سبباً فى إثارة مشاكل خطيرة فقد اختلف مع البابا غريغوريوس التاسع واستفحل الخلاف بينهما إلى حد كبير .

ولكن هذا الرجل الغريب الذى أغرم بالثقافة العربية

= فى حملته على ايطاليا واشعل النار فيها ولكنها لم تلبث أن ازدهرت من جديد فقاومت جيوش شارلمانى العظيم عام ٨٠٢ وجيوش النورمانديين عام ١١٠٧ . ثم عادت فتدهورت وكانت حالتها تدعو الى الرثاء عند ما فكر الامبراطور فردريك الثانى فى أن يجعل منها مستعمرة عسكرية للعرب الذين جاء بهم من صقلية إلى كابيتانات . فشيد الامبراطور بالقرب من المدينة القديمة =

هو نفسه الذى نظم الحرب الصليبية السادسة وتولى قيادتها وإن كان ذلك منه تظاهراً لا عقيدة راسخة وسار لمقاتلة صديقه الكامل سلطان مصر وقد كانا يتبادلان الهدايا والممثلين السياسيين منذ أمد طويل . وقد ورد فى مؤلفات مؤرخنا المقريزى . ذلك المؤرخ الدقيق الذى أتى على سرد الحوادث سرداً مستفيضاً مسهباً . تلك النبذة عن فردريك الثانى :—

كان أميراً عالماً كبيراً فى الفلسفة والهندسة والحساب وجميع العلوم المنطقية وقد وجه إلى السلطان الكامل عدة أسئلة عسيرة عن نظرية الأرقام فعرضها السلطان على علم

= عام ۱۲۳۳ قلعة أحاطها بسور منيع لا يزال قائماً إلى أيامنا هذه . وكان هذا السور يضم بين جدرانه مساجد وترسانات وورشاً ومنازل لسكان يمكن تقديرهم بستين ألف نسمة . وقد أخلص عرب لوسيرا الذين كان البابوات يخشون بأسهم لأمراء آل « صواب » وقاوموا شارل وانجو الذى لم يتمكن من اخضاعهم عام ۱۲٦۹ إلا بالجوع والعطش . وقد استخدمهم بعد ذلك =

الدين واصف وغيره من العلماء وبعث برده إلى الامبراطور

وكان السفير الذى عهد إليه والى مصر بحمل رسائله إلى فردريك هو الأمير فخر الدين وهذا أيضاً من رجال ذلك العهـــد المدهشين . فقد كان بدوره مغرما بالغرب بقـدر ما كان فردريك مولعاً بالحضارة العربيـة بحيث أنه على الرغم من قيام الحـرب الصليبيـة ظل هذان الرجـلان مرتبطين برباط وثيـق من الصـداقة لم تفصم عراها حتى آخر نسمة من حياتهما .

وما أن وصل الامبراطور إلى بلاد الشرق حتى ليخال أنه تأثر بسحر الأراضى الاسلامية أكثر من

= فى حروبه التى شنها على صقلية والامبراطورية البيزنطية ولـكن نجله شارل الثانى غضب لحسن معاملتهم والتسامح معهم وهو تسامح لم يكن ليتمشى مع روح ذلك العصر فطرد العرب من لوسيرا وأمر باعدام أو استعباد جميـع الذين رفضوا اعتناق الدين المسيحى واستبدل اسم المدينة باسم سانتا ماريا ١٢٩٩ — ١٣٠٤ ولـكن المدينة ظلت محتفظة باسمها القديم . وقد خلط بعض =

ذى قبل وقد روى المقريزى حديثاً عنه وأيده فى ذلك المطران دا كشيرا « " THOMAS D'ACCERA " » وهذا الحديث يكشف لنا عن صفحة من صفحات هذا الامبراطور فى كثير من الدهشة .

قال فردريك أمام جمع من أمراء اللاتين وقد عرتهم الدهشة . إن غايتى السامية من المجىء إلى القدس هى أن أسمع المسلمين فى صلواتهم يبتهلون إلى الله ليلا !

إن هذا الوصف ليرسم لنا بوضوح وجلاء صورة هذا المستشرق الامبراطورى الذى يعد بغير ما تثريب سلفاً بعيداً وغير منتظر « لشاتوبريان ولوتى »
" CHATEAUBRIAND & LOTI "

= مؤرخى القرون الوسطى بين هذه المدينة ومدينة نوسيرا الملقبة بمدينة الوثنيين (Nocera degli pagani) وهو لقب يرجع إلى غزوات العرب فى القرن التاسع . ولم تكن ثمة فى عهد فردريك الثانى مستعمرات عربية فى نوسيرا . (Le. Dezobry et Bachelet : Dictionnaire de Biographie, page 1652)

ففي عهد العباسيين الأول . وهو العهد الذى ابتعدنا عنه قليلا خلال حديثنا كانت أوربا لا ترقب إلا حجة لتقيم العلاقات مع الشرق . ولقد أقامتها بصفة غير رسمية بواسطة مؤرخيها الذين أوفدتهم ليحملوا إليها ثمار ملاحظتهم ثم بصفة رسمية عن طريق سفرائها فقد أرسل الفرنج « الكارولنجيون » " CAROLINGIENS " سفارتهم الأولى عام ١٤٨ (٧٦٥) فى عهد بيبان القصير " PÉPIN LE BREF " إلى بلاط الخليفة المنصور .

كانت تلك العلاقات وليدة رغبة الفرنج الذين كانوا يعملون على تحديد سلطة البابا الزمنية فكانوا يسعون إلى إيجاد مناصر لهم فى الشرق ليقاوم معهم امبراطرة بيزنطه الذين أصبحوا من دعاة تحطيم الصور . فلقد كانت الحدود الفاصلة بين العرب والبيزنطيين من بحر قزوين إلى البحر المتوسط سبباً فى وقوع غزوات كثيرة من فرسان العرب

الذين كانوا يتقـــدمون فى غزواتهم حتى كيليكيا وأنقره بحيث أن الحرب لا تضع أوزارها ألبتة بين الامبراطورية العربية والبيزنطيين . وهذا ما كان يرتاح إليه الفرنج .

وإنهم فى سبيل ذلك بدأوا فى التردد على بغداد وراء ستار الاعجاب بالحضارة العربية سواء أكان حقيقياً أم ظاهرياً أو كليهما معا . أما الحقيقـــة فانهم كانوا يبتغـون طلب شيء واحـد . وهذا طبيعى . جاءوا ليرجوا الخليفـة بأساليب الدهاء المقنعة بستار من العبارات الأدبية المنمقة أن يستمر فى حربه مع البيزنطيين قـــدر المستطاع . قد لا تكون هناك أية فائدة من هذه التوصيـــة فلا العرب ولا البيزنطيون كانوا يرغبون فى التنـازل عن مطـامعهم المشتركة أو الكف عن قتال سوف يظل عهداً طويلا سواء بنصح الكارولنجيين الأجوف أو بغـير نصحهم . ولكن يمكن الاستنتاج من ذلك أن الوسيلة فى عقـــد

العلاقات السياسية بين الكارولنجيين والعباسيين قد وجدت .

ولنرجع الآن فى حديثنا إلى نظام الامبراطورية المالى فى عهد الخليفة المنصور . لقد كانت الأقاليم التابعة رأساً لمركز الخلافة الرئيسى هى : بابل . سوس . وفارس وكرمان والعراق العجمى وخراسان وازربيجان وما بين النهرين وسوريا ومصر . أما الأقاليم التى كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى تحت إدارة الولاية فهى بلاد نجد والبحرين واليمن وغرب برقة وبلاد المغرب وفارس والسند .

وكانت الضرائب تجبى من فارس والسند وجزء من بلاد العرب وتدفع دراهماً فضية فى حين أن ضرائب سوريا ومصر اللتين أهملتا مؤقتاً لمصلحة العراق كانت تدفع بالدينار الذهب .

ولما كانت العراق تقع مباشرة تحت إشراف الخليفة الذى أغرم بها فجأة فانها كانت موضع رعاية خاصة . فقد نفذت فيها مشروعات واسعة للرى وحفرت الترع الخ ...

أما الأعمال التى بدأها الأمويون لتحسين الأراضى البور فقد نمت وامتدت وأنجزت بنجاح مما ضاعف ثروة البلاد وجعل منها نوعا من أملاك الخلفاء العباسيين الخاصة أو ما يسمونه حديقتهم الممتازة .

وقد ألغى المنصور دفع الضرائب على محصول الغلال نقداً واستبدلها بضرائب عينية وفى آخر سنى عهده أدخل البرامكة ضرائب ثابتة يدفع نصفها نقداً والنصف الآخر عيناً . وقد وزعوا المبالغ بطريقة استبدادية بأن فرضوها على كل فرد من السكان أو على كل وحدة من الزراعة . وقد طبقوا تلك الضرائب الثابتة بغير تمييز وبدون مراعاة لحالة البلاد التى أقفرت و افتقرت لعدم وجود الرى

أو لأى سبب آخر وأرغموها على دفع تلك الضرائب وهى نفس الضرائب المفروضة على البلاد المشهورة بخصبها والتى لا تلبث أن تضمحل وتفقد من خصبها تحت ضغط هذا النظام الاستبدادى .

وكان هذا النظام الذى بعثه البرامكة فجأة من التشريع الغابر لقدماء الفرس يتناقض تناقضاً صارخاً مع نظام الضرائب الاسلامى وروح الشرع الاسلامى نفسه .

أما الأرباح الشخصية التى جناها الوزراء البرامكة وأنصارهم من هذا النظام سراً فى بادىء الأمر ثم جهاراً فكانت أرباحاً طائلة ولكنها أثرت فى إيرادات الدولة تأثيراً محسوساً وأنقصتها نقصاً ملموساً . فكان ذلك أحد الأسباب العديدة التى أدت إلى الصاق تهمة الزندقة بهؤلاء الايرانيين الذين ظلت ذكرى وطنهم الساقط عالقة فى أذهانهم حتى ليقال أنهم لم يعملوا إلا لأعادة صرح

امبراطورية المازنيين أو لاحياء شريعة زردشت وفى هذا ما يبرر بطريقة أخــرى النقمة التى حلت بعشيرتهم عام ٨٠٣ .

وقد توصل المؤرخون على وجه التقريب إلى تقسيم ميزانية الامبراطورية فى عهـد الخلفاء العباسيين الأول إلى ثلاثة عهود .

العهد الأول من عام ١٥٨ حتى عام ١٧٠ (٧٧٥ - ٧٨٦ م) حيث بلغ دخل خزينة الخليفة ٤١١ مليون دينار ذهباً .

والعهد الثانى من عام ٢٠٤ حتى عام ٢٣١ (٨٠٩ — ٨٣٦ م) حيث هبط هذا الدخل إلى ٣٧١ مليوناً .

والعهد الثالث من عام ٢٢١ حتى عام ٢٣٧ (٨٣٦ - ٨٥١ م) حيث لم يتجاوز الدخل السنوى ٢٩٣ مليوناً

وهكذا لم يسفر سقوط البرامكة عن أى تحسـين

أو تعديل فى مالية الامبراطورية . فهذا النظام العقيم منذ نشأته أسفر بعد حكم المأمون وفى عهد الخلفاء المتعاقبين عن عجز كان يزداد عاما بعد عام . وإذ ذاك شرع ولاة الأمور لسد هذا العجز يطالبون هذا أو ذاك من الأقاليم بأن يدفع إلى خزينة الخلفاء سلفاً مبالغ طائلة وهى مبالغ كانت تنتزع فى بعض الأحيان انتزاعا من الاقاليم أوشكت مواردها أن تنضب . ومما ساعد على انهيار الامبراطورية ودك صرحها فيما بعد تلك الأعمال الاغتصابية التعسفية التى ارتكبت لمصلحة الافطاعيات العسكرية والضرائب الباهظة التى كان يفرضها أمراء العمارات . وهم من الديكتاتوريين العسكريين الذين نصبوا على الامبراطورية فى آخر عهد الخلفاء العباسيين لسد نفقات الجيوش المرتزقة وهؤلاء كانوا يجندون دائما من الأتراك والأكراد .

أننا لا نزال بعيدين جد البعد عن عهد انهيار

الامبراطورية العباسية وسقوطها على أن تلك الشبكة المحبكة التى حاكها عمال الجاسوسية السياسية وتلك الضرائب المفروضة بوجه عادل أو بطريقة غير مشروعة وتلك التدابير البوليسية التى أقامها المنصور لضمان سلامة ملكه . كل ذلك لم يحل دون ثورة الشعوب المتذمرة المغلوبة على أمرها .

فمنذ عام ٧٦٠ عاودت الفتن والإضطرابات سيرتها الأولى فى كثير من أنحاء الامبراطورية . فبعد أن طأطأت سوريا رأسها اذعانا للعباسيين أخذ الحجاز يتحرك بدافع من الامل الغامض . وفى عام ٧٦٢ حاول بعض أنصار العلويين المنسيين أن يضرموا نار الثورة فى الحجاز بانضمامهم الى ابراهيم أحد آل الحسن « ابن الخليفة على » للمطالبة بحقوق هذا الأخير بالخلافة ولكنهم فشلوا .

وفى عام ٧٦٤ شبت ثورة عنيفة فى فارس إذ دعا

سمبـاد المزدكى مواطنيه الى الانتقـام لقتل أبى مسلم . وقد اندلعت نيران هـذه الثورة الخطيرة فى خراسان وازربيجان . فأرسل المنصور نجله المهدي على رأس حملة عسكرية ضد سمبـاد الذى قتل فى معركة جاميـة الوطيس بالقرب من همدان .

ولعـل أعنف الثورات التى واجهت المنصور هى ثورة دجال فارس يدعى « استدسيس » وقـد ادعى النبوة وأثار الحـيرة ولـكنه قتل بعد عناء طويل . وقاتله هو ابن خزيمة عام ٧٦٥ .

وبعد أن انتهى المنصور من اخماد نار هذه الفتن والاضطرابات وادخال التعديلات الجـديدة على نظام الحكم فى ولاياته وجه جل اهتمامه فى الشطر الثانى من حكمه الذى استغرق ٢٠ عاما الى النهضة الفكرية والعلمية فأخذ يشجع رجالها ويمدهم بتعضيده .

وقد ولى العلوم ولا سيما الطب كل اهتمامه فاستدعى الى بلاطه طبيباً مسيحياً يدعى جيورجيس بن بختشوع المعروف بجيورجيس بن جبريل وهو من جنداى شاهبور حيث كان يدرس الطب وقد شفا هذا الطبيب الخليفة المنصور من داء ألم بمعدته ثم أبلغه أنه ألم بعلم الطب عن الأبحاث العلمية التى وضعها قدماء اليونانيين وأنه يدرس الطب فى مدرسته بجنداى شاهبور على أساس مبادئهم ونظرياتهم . وعلى أثر ذلك أمر المنصور بتعريب أبحاث جاليانوس الأولى عن الطب وشجع كذلك دراسة علوم الصيدلة ووضع أسس مدرسة الطب هذه التى أحرزت فيما بعد أيام حكم حفيده الخليفة المأمون شهرة عالمية وأصبحت تنافس مدرسة الطب فى قرطبة وهى لا تقل عنها شهرة .

وقضى المنصور نحبه عام ١٥٨ (و ٧٧٥م) تاركا

الامبراطورية من بعده لابنه محمد المهدى .

وكان هذا الشاب البالغ من العمر الرابعة والثلاثين على جانب عظيم من الثقافة وسعة الاطلاع ودماثة الاخلاق. ولكن مما يؤسف له انه كان ضعيف العزيمة والارادة إلى حد بعيد . ولئن كان فى استطاعـة هذا الملك العالم أن يقضى الساعات الطوال فى مناقشة أصعب المسائل الحسابية وأشدهـا تعقيداً للوصول إلى الحل الموفق . فانه كان على نقيض ذلك عاجزاً عن مقاومة السيطرة الوخيمة التى كانت تفرضها عليه زوجته .

كان المهدى من هؤلاء الرجال الذين لا يستطيعون التحرر من سيطرة المرأة على حياتهم . فقد كان منذ ارتقائه العرش قد اختار محظية فارسية فارهة الجمال تدعى « الخيزران » ، واقترن بها فأنجب منها ولدين هما موسى المهدى وهارون الرشيد .

كانت الخيزران دساسة مثقفة موفورة الذكاء . فقد كانت تقيم فى قصرها منتديات أدبية وهى لعمرى إحدى أولاء النساء اللائى برعن من جميع الوجوه وبحسن تمثيل الأمور فيلبسن لكل حالة لبوسها أما نعيمها وأما بؤسها . وهذا كاف ليوضح لنا كيف أن دسائسها منذ فاتحة حكم المهدى قد قلبت داخلية القصر رأساً على عقب وأثرت فى السياسة .

واستاءت الخيزران من أبى عبيد الله وزير المهدى لأنه أدرك ما يرقب مولاه من الأخطار فى المستقبل فحاول أن يحد من سيطرتها ونفوذها على الخليفة فكان ذلك سبباً فى سقوطه وزوال حظوته ونفيه .

وولى بعده يعقوب بن داود ولكنه سقط بدوره ولما يمض عليه خمسة أعوام لأنه عارض فى حقوق الملكة وتدخلها فى شئون الدولة بتعيين حكام الأقاليم وعزلهم .

وإنا لنتساءل عما إذا كانت هيبة الحكم أو نزعة الدسيسة أو أيضاً نزعة إمرأة غير مسئولة هى التى كانت تدفع بالخيزران إلى احتلال تلك المكانة البارزة فى شئون الدولة . لعمرى إن الأمر كان أسوأ من ذلك وما الدافع إليه إلا مطامع شيطانية وغاية شريرة كانت تضعها نصب عينيها وتثابر على الوصول إليها فكان ذلك سبباً فى وقوعها فى الجرم .

فمنذ عام ٧٨٠ كان الخليفة قد عين نجله الأكبر الهادى ليخلفه فى الملك . أما الخيزران فكانت تريد الامبراطورية لنجلها الأصغر هارون الرشيد فقد كانت تحبه حباً جماً وتفضله على شقيقه الأكبر الهادى ولكى تضمن له العرش أخذت تحيك أشد المؤامرات جرأة وأشركت معها فى عملها أسرة البرامكة الماكرة الخاضعة التى بدأ زعيمها يحيى . منذ ذاك الحين . فى تمثيل ذلك الدور

الخفى المجهول الذى طالما حير المؤرخين وكان موضع جدلهم وتناقضهم . فهو لم يصبح أعظم المستشارين نفوذاً فحسب . بل اداة للانتقام فى يد الملكة الناقمة الحقود .

فبعد أن حاولت الخيزران بغير ما جدوى ان تلصق بالهادى تهمة الخيانة العظمى إنتهزت وانصارها فرصة وجود الأمير الشاب فى الجرجان حيث كان يعمل على إخماد نار الثورة فيها عام ٧٨٣ لكى يجردوه بجميع الوسائل من حقوقه فى خلافة العرش . على انهم اصطدموا فى هذا الصدد برفض قاطع من الخليفة .

إن للضعفاء احياناً ثورة حزم تحمل الدهشة إلى اعماق النفوس إذ هى تكشف فجأة عن عزيمة لم تعرف عنهم ولم تعهد فيهم من قبل وللمرة الوحيدة رفض الخليفة المهدى ان يصغى إلى ايعاز زوجه واتهاماتها وابى ان ينتصح بنصحها ويعمل برأيها .

كان المهدى معتزما ألا يغير نظام الوراثة فى الامبراطورية وهو النظام الذى وضعه عام ٧٨٠ ومصراً على ترك العرش لنجله الأكبر وكان آنئذ فى الرابعة عشر من عمره . لقد قرر أن يحكم الهادى أولا على أن يخلفه هارون من بعده .

وانا لنتساءل عما إذا كان الخليفة قد سلك هذا المسلك الحازم بدافع من الحب والتفضيل لنجله الأكبر أم بدافع العدل الأبوى أم الذكاء أم أيضاً بدافع الخوف من أن يترك عرشه لغلام يافع قد يقع حتما تحت نفوذ والدته ، وكانت الشكوك قد بدأت تساوره بشأنها ، أو تحت سلطان البرامكة الذين خضع بنفسه لسيطرتهم الطاغية وحاول عبثا أن يتخلص منها . إنه كان يخشى عاقبة نفوذهم الوخيم إذ كان يعلم أن هذا النفوذ لا بد أن يمتد إلى عهد غلام يافع ضعيف فيسيطر عليه . إن جميع الافتراضات

لمحتملة . هل كان الخليفة ينوى الايقاع بمن حوله فحيل دون ذلك ؟ لقد توفى المهدي فجأة فقال البعض إنه قضى نحبه فى حادث صيد وأكد البعض الآخر أن السم دس له فى إحدى حفلات الصيد فى اليوم الثانى والعشرين من شهر محرم عام ١٦٩ — ٤ اغسطس ٧٨٥ م .

ومهما يكن من أمر . فقد خلفه موسى الهادى عام ٧٨٥ على الرغم من جميع الدسائس التى حاكتها الخيزرانة وأنصارها البرامكة للحيلولة دون ارتقائه العرش فقد أحبط القدر جميع مشروعاتهم . وأقنع يحي البرمكى الخيزرانه وحملها عندئذ على عدم تعكير صفو حفلة المبايعة باقترافها أمرا جنونيا فاستسلمت الخيزران للصدمة هاشة باشة إذ طأطأت رأسها المتكبر الأثيم وطلبت إلى ابنها هارون أن يحنى جبينه البرىء أمام الملك الجديد .

وكان أول عمل أقدم عليه الهادى عند ارتقائه العرش هو الحد من السلطة الواسعة التى اختصتها والدته لنفسها والقضاء على نشاطها السياسى والتخلى مهما كلفه الأمر وطلب إليها أن تلزم عقر دارها وحظر عليها كل اتصال مباشر مع كبار موظفى الدولة. ولم يقف الخليفة الشاب عند هذا الحد بل ألقى بجميع معتوقى الخيزران فى غياهب السجون ووضعها وشقيقه الهارون تحت رقابة ساهرة كانت أشبه باعتقال مستتر!

وقد شعرت الخيزران بعظم الاهانة والمذلة حتى أعماق قلبها من جراء تلك التدابير التى لم تكن لتروقها. فلسوف تنتظر فى ظلمة قصرها... ولسوف تنتظر صامتة متحفزة كالنمرة ترمق اللحظة المواتية للوثوب والبطش. أما تلك اللحظة فسوف لا يطول انتظارها.

ولكى يقضى الهادي على جميع مطامع شقيقه فى

العرش وأمانيه فيه عين ابنه جعفر وهو طفل فى الرابعة من عمره خليفة له ووليا لعهده فحرم هارون بذلك من العرش وقضى على حقوقه فيه قضاء مبرما .

على أنه مهما كانت دلالة هذا العمل الجرىء وسرعته فهو لم يكن من المهارة بشىء مع وجود الخيزران متربصة تراقب الحوادث بعين ساهرة وتتحين الفرص فى ظل انتقامها وقد أوعز ربيع بن سهيل وزير الهادى إلى مولاه وأسر اليه بأن ابعاد هارون من العرش او حرمانه من حقوقه فيه لا يكفى إذ أن وجوده على قيد الحياة يعد فى حد ذاته من أعظم الأخطار على طمأنينة الدولة وسلامة مليكها . ولذلك يقال إن الهادى كان يفكر فى التخلص من شقيقه . غير أن البرمكى أبلغ الخيزران نية الخليفة سراً فحال دون وقوع المأساة وتآمرت على الهادى وعملت على ضياعه لانقاذ هارون .

· عند ما يريد الشيطان شيئاً فانه يدركه عادة . فقد دعت الخيزران الهادى إلى حفلة فى قصرها وهناك التف جواريها حوله وكتمن أنفاسه ومازلن به حتى قضى نحبه فى ليل ١٥ / ١٦ ربيع الأول عام ١٧٠ هـ — ١٥ سبتمبر سنة ٧٨٦ م ولم تتجاوز خلافته سنة وشهراً .

أما هارون البرىء من تلك الجريمة الشنعاء التى ارتكبت من أجله وبغير علم منه فقد أيقظته والدته ويحيى البرمكى فى منتصف تلك الليلة المشئومة ليسمع المناداة به خليفة على المسلمين .

ويقال ـ إن صدقا أو كذبا ـ إن هذا الشاب البالغ السابعة عشرة من عمره الذى قدر له أن يحكم بمشيئة الأقدار العجيبة . قد صاح تلك الصيحة المؤلمة المليئة بالجزع والاهتمام « أواه يا أماه ... ماذا فعلت !؟ »

ترى هل كانت صيحة اللوم هذه اعترافا منه ببراءته

إنه للوم مؤلم من ذلك الابن الذى يدين بحياته لتلك الأم التى أعماها حبها أو طموحها ودفع بها إلى ارتكاب أفظع الجرائم وأشنعها لتنال له عرشاً !

ولكن مالنا والحكم على أعمال الخيزران والدور الذى مثلته فقد غمرها الرشيد بعطفه وحنانه وأحاطها بجميع أسباب العزة والكرامة ولم تطل حياتها فى عهد ابنها الثانى . فقد ماتت بعد ارتقائه العرش بثلاثة أعوام سنة ١٧٣ هـ — ٧٨٩ م .

ولنتجه بأنظارنا إلى ذلك الأمير الشاب لنرى كيف عاش وحكم إذ أنه الأمير الذي أصبح أعظم الملوك جاها وأكثرهم بذخا وأغزرهم علما وأبعدهم ثقافة كما أنه كان أحد الرجال الذين حار فيهم التاريخ وكثر حولهم جدل المؤرخين .

أسرة بنى العباس

٢

التجارة والتجار . الأسواق والحانات والخانات « الفنادق » . الخليفة المتنكر والخليفة المتجول . الشعراء المسفون . علماء العرب ومدارس بغداد . ولائم هارون الرشيد . الراقصات والغوانى . السفارات والقنص والاستعراض . زبيدة الأميرة المسلمة .

إن نجاح المؤامرة عام ٧٨٦ التى أودت بحياة الهادى لترفع إلى العرش هارون الرشيد قد عززت حتما أسرة البرامكة وحملتها إلى أرفع ذرى المجد والجاه .

فما أن اعتلى هارون العرش حتى سلم مقاليد الأعمال بأكملها إلى يحيي البرمكى ووضع زمامها بين يديه . فأسرع هذا الأخير إلى ارسال أحد أنجاله وهو الفضل حاكما على

خراسان وقلد غيره من البرامكة زمام الحكم فى فارس وازربيجان وأرمينيا وهكذا وضع أقاربه فى كل مكان وعلى رأس جميع ولايات الامبراطورية ومصالح الدولة. وليس فى هذا التصرف مايدعو إلى الدهشة فهو أمر عادى طبيعى .

كان يحى منذ عهد بعيد قد دفع بجعفر نجله الثانى إلى داخل القصر وضمن حاشية الخليفة وخاصته بل رفع به إلى أرفع درجة من درجات العرش وأقربها اليه . وكان جعفر الشهير صديق هارون منذ صباه وحظيه فى جميع ساعاته ولحظاته . وبذلك تم له أن يترك الباب مفتوحاً لمختلف أنواع الدسائس والمفاجآت وجميع أساليب السخرية والدهاء وجز الشعور والأعناق .

ولم يك هناك شك فى أن هارون الفتى الطائش كان لابد أن يترك للبرامكة الحبل على الغارب فيتقامرون

بحظ الامبراطورية ويعقدون شئون الدولة وماليتها أو يخانونها . وكان لابد أيضاً أن يترك — كلا بل يساعد هؤلاء البرامكة النهمين يتقلبون بين أحضان الذهب وإن قدر أن يدفعوا ثمن هذا الذهب غالياً فيما بعد . لاشك في أن هارون كان يتمتع بالملك بل ويتمتع به فى أسمى مظاهره ولكنه كان لايحكم بل كان ينظر إلى يحي وهو يدير عنه دفة تلك الامبراطورية الواسعة التى دفع الأمويون السالفون بحدودها إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره عقل ولكنها بدأت تتضاءل شيئاً فشيئاً ولابد أن تستمر فى هذا التضاؤل والانكماش .

فكثير من مختلف الولايات قد انشقت قبل ذلك مثل أسبانيا نخسرها العباسيون تماما منذ عهد المنصور ولسوف يأتى دور افريقيا الشمالية مثل تونس والجزائر وطرابلس لسوف يرسلون هرشة بن أعين على رأس حملة كبيرة

لاخضاع الثوار فينخمد نيران الثورات على أن ذلك لن يصلح الامور إذ أنها لاتلبث أن تنفجر من جديد بل هي تظل مستمرة دون انقطاع . ولسوف يبعثون أيضاً بحاكم هو الأغلب ذلك الرجل الحازم الداهية بل ان دهاءه كان ممتازاً إذ قد تمكن بمساعدة البربر من الجلوس بدوره دون أن يعكر صفوه أحد على عرش آخر فى القيروان حيث تحكم سلالته مائة سنة ونيف من عام ٨٠٠ إلى عام ٩٠٩ [١] .

ثم تنضم مراكش نهائيا تحت لواء شخصية جميلة ساحرة هى شخصية السيد إدريس [٢] الذى يؤسس دولة العلويين المستقلة وسلالته هى سلالة الادريسيين .

ثم لاتلبث فارس وازربيجان ولا سيما خراسان أن

---

(١) الاغلبيون كانوا يحكمون تحت سيادة العباسيين

(٢) إدريس من سلالة الحسن بن الخليفة على

تثور وتثور مراراً وتكراراً تبعا لرغبة البرامكة ومشيئتهم . وكلما نفخوا فى مرجل الثورات تبعا لمقتضيات سياستهم ولأسباب شخصية لا يعرفها إلا هم وإن كانت موضع الريبة والشك من الكثيرين .

ومجمل القول أن الاثنتى عشرة سنة الأولى لحكم هارون مرت وهو ينظر إلى يحي والبرامكة يحكمون بينما كان يعيش مع جعفر الذى كان يلازمه ملازمة الظل عيشاً غريباً . لم يتمكن إلا قليل من الرجال سواء أكانوا أمراء أم أتباعا . من مجاراتهما فيه . فقد اندمجت شخصيتهما ببعضهما وامتزجتا حتى لم يعد من الهين التفريق بين هذين الشابين أو معرفة من كان الخليفة منهما !

كيف ينظر الناس إلى هارون الرشيد عامة .

أنهم ينظرون إليه من وراء ستار من الترف ضاعت معالمه منذ عهد كسري وخلف سمعة من البذخ والتبذير

والكرم المتناهى والقسوة الغريبة المدهشة ومن وراء البخور المتصاعد من قصص ألف ليلة وليلة وأحلامها الجميلة ومن وراء الشهوات التى لا يتصورها عقل والتى حاكها الغربيون بخيلتهم فأحاطوها بنسيج مسرحى وإن كان ساذجا . ومن وراء أغانى الشعراء الذين أحاطوا اسمه بسياج من أحلامهم . ليس شك فى ذلك .

ما الذى كان يمتاز به عن أسلافه وعن خلفائه مما يجعل المخيلة لمجرد ذكر إسمه تذهب بك إلى عالم الأعاجيب شىء لا يذكر .

إن المرء ليتساءل عما فعله من المدهشات أكثر من غيره لكى يحتكر لنفسه بذخ الشرق وعظمته ويبتلع من غير مبرر ولا مسوغ شهرة الآخرين . ولكى يتغنى به رواة ومؤرخو الشرق والغرب ويقرعون اسمه كالطبل منذ عشرة أجيال ويحيطونه بالمجد وإن كان مجداً أجوف

أجدب دعيا إذ أنه لم يكن فاتحاً ولا مشرعاً ولا مصلحاً ولا عبقرياً ولا فذا بل ولا معتدلا . وإذن علام تلك الشهرة المفتعلة .

فالواقع ان هارون الرشيد لم يبتدع شيئا عجيبا ولا خاصا إلا أن الصدفة قد جعلته يولد فى فجر مدنية سامية فعضدها . وسواء أكانت الصدفة قد رفعته إلى العرش أو سواء أن تلك الصدفة جعلته يتمتع طيلة حياته بذلك الشىء الهوائى العجيب الذى يصعب تحديده ويتعذر تفسيره ويتجاوز كل منطق ولكنه مع ذلك يعد كل شىء ولا شىء أو لاشىء وكل شىء معا . ذلكم هو الحظ .

هل هذا يدهشكم . ربما . ولكن ماذا عساكم تريدون أن يكون أن لم يكن الحظ .

حظ مدهش ذلك الذى خلد ذكرى هارون صافية لامعة وحملها على أجنحة الريح واخترق بها الاجيال

والعصور وجعل ألسنة الناس تلهج به ومخيلتهم تذكره كما
لو كانت فى حلم عميق لا لشىء إلا لأنه لم يعمل شيئا أو
عمل شيئا لا يكاد أنه يذكر .

ومع ذلك فلو أن جميع الذين كانوا موضع رعايه الحظ
فى التاريخ لم يتمتعوا بتلك العاطفة الجذابة التى تقربهم إلى
النفس فان هارون . على نقيض ذلك . كان جـذابا . ولو لم
يكن لقب « المجنون الأنيق » تافها أو عصريا صميا لتلقب
به مثل هؤلاء العظماء القدماء فهذا لا يمنع أن يكون هذا
اللقب خير معبر عنه لقرب معناه من طبيعته المتنوعة . انه
جذاب لأنه لبق متقلب متأنق . ولأنه إذا استثنينا غريزته
الوحشية . لم يكن عربيدا ولا فاسقا . فهو المتحمس بغير
مثل أعلى والعالم المتشكك بغـــير غاية والمتضجر العنيد
اليائس الذى طالما رأي وشاهد حتى عمى عنه البصر فلم
يعد يحسن الرؤيا فاذا استيقظ من غفلته أصبح بشراً

رحيما وإنساناً تافها [١] .

ولذلك لايجب ملاحظته ودراسته فى حياته العامة وهى حياة السلطان الباذخ ولكن يحسن ملاحظته من وراء حياته الخاصة العادية وفى ساعات استرساله . إن كثيراً من الناس . بل أغلبهم . يتخيلون أن حياة هارون ليست سوى سلسلة من الفسق فى حفلات مستمرة بغير انقطاع . ولكن هذا خطأ ولذلك فاننا سوف نلقى على تلك الحياة الخاصة . نظرة ثاقبة لنقف على حقيقة شخصية هارون أو بتعبير رجعى آخر « الخليفة الصالح » .

كان هارون الرشيد لايحب بغداد ويفضل الرقة . كان يفضل خصوصاً ذلك القصر القائم عند ضواحى الانبار

---

(١) خلق السياسة والكياسة أم خلق الشهوات والمرح أم هما ممتزجان بطابع العروبة اللاذعة الحارة وبطابع الأعجمية المزخرفة الحلوة الجذابة يظهرها المناسبات السياسية العميقة والأبهة والجلالة المتأرجحة على سارية من الجمال الصورى لهذا لكل مؤرخ وجهة وناحية .

الذى شيده ارضاء لنزعة فى نفسه على سواحل الفرات فى
وسط غيض من الخضر والأزهار وكان أيضاً يحب ذلك
الجناح المنعزل الذى بناه فى وسط غابة من شجر السرو
على مدى بضعة فراسخ من بغداد وتمكن أن يجمع فيه
مجموعة نادرة من المخطوطات والمطبوعات الثمينه فكان
يلجأ إليه كلما حمله الشوق إلى التعمق فى الدراسات الادبية
فللرشيد ناحية عملية جادة أهملوا وصفها والتحدث عنها
لكى لا يصفوه إلا متدثراً بلباس الامارة الساطع . ولئن
لم يكن يحب عاصمته فان ذلك لم يمنعه ارضاء لفضول طبيعى
من أن يرود فى جميع أنحائها ويقف على جميع خباياها فقد
كان يتردد على ضواحيها وأزقتها وطرقها وأحيائها
المكتظة ويزور مدارسها وقصورها وحماماتها العامة
وحوانيتها وأسواقها وخلواتها المظلمة . لقد كان يعرف
بغداد ولكن كما يعرفها المتنزه الحر الذى يبحث عن

أحداث جديدة والمفكر الذى يلاحظ مسروراً وينظر ساخراً .

كان فتيان تكاد تكون قامتهما متساوية يرتديان لباس التجار العادى أو لباس الطلبة البسيط ويسيران معا فى أحياء المدينة وطرقاتها المكتظة وأحدهما كان هارون والآخر جعفر لقد كانا يجتازان الأسواق دون أن يعرفهما أحد . ويسيران تحت القباب النادرة حيث توجد الحوانيت المكدسة بما فى الشرق من ثروات تحملها اليها القوافل بغير إنقطاع وفى هذه الأماكن أيضاً كان قلب الامبراطورية ينبض ودمها يسيل بلا إنقطاع فى أليافها وشرايينها . فى هذه الحوانيت وتحت تلك العقود يعيش عالم من التجار والبدالين والجوالين والوسطاء والسماسرة والصناع والفنانين يتناقشون ويبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون ويتبادلون منتجات العالم بأسره .

فمن مصر كان يرد البلسم والكتان والقنب والقمح والنحاس والذهب وزمرد النوبا [1] ومن الحبشة العاج ومن أسبانيا الحرير والصينى والجلود والأسلحة الصلب ومن اليونان النباتات ذات العرف الطيب والصمغ ومن سوريا « دمشق وصور » الزجاج والبللور والاصواف ومن بلاد العرب البخور ومن مايوركا الشبه ومن كابول الصبغة ومن جزائر الملدات العنبر الأسمر ومن سومطره البخور الجاوى والزعفران والقرفه ومن جاوه خشب الصبر ومن الهند الذهب والماس والعاج والأخشاب الثمينة والصندل ومن خليج فارس « البحرين وحضرموت وعمان » اللآلىء والصدف ومن سيلان الياقوت واللازورد والبهار ومن فارس « كرمان » الأصواف

(١) مناجم الذهب والزمرد فى الوجه القبلى والنوبا التى كانت تستغل منذ العهود القديمة ثم نفدت وهوت فى القرن الرابع عشر

ومن شيراز الفيروز والعقيق والمرجان ومن أصفهان أقمشة التفتاه ومن بخارى الطنافس والأصواف والسجاجيد والأقمشة ومن مرو الزبرجد ومن الموصل صفائح الصلب والموسلين ومن سمرقند الأطلس والفضة والأقمشة الناعمة ومن الصين الصيني وحجر الشب والحرير الخام والصمغ اللك ومن التيبت المسك .

وهناك أيضاً تلتقي مختلف أجناس العالم وتتصادم . فمن أهالى القلموق فى القوقاز الى خزاريي الفولجا واسكندنافيي [1] البلطيق وكلهم من صانعى الفرو الثمين وتجاره .

---

(١) هذا مايفسر اكتشاف كمية من النقود العربية التى يرجع عهدها الى العباسين والأيوبيين فى بلاد اسكندنافيا ويذكر المؤرخ هيران جزءا كبيرا من تلك النقود كان محطما وأنه من المحتمل أن يكون أهالى الشمال هم الذين حطموا هذه النقود المجهولة التى أتى بها التجار من الشرق من باب التسلية واللهو وقد كان التجار العرب يؤمون بلاد الشمال لا لشراء الفرو فحسب بل لدرس تلك البلاد =

ويؤم تلك الأسواق كذلك الفرنجة والفلامنديون والنورمنديون وايطاليوجنوا والفينيقيون والصقليون والمصريون والأحباش والايرانيون والأرمن والقوقازيون والتتر والترك والهنود والصينيون والمالزيون ثم اليونانيون والبيزنطيون من جميع المهن . فمن المعلم الى التاجر ومن الراوي الى النخاس ومن الحائك الى الفنان المنافس للرسام الفارسي والنقاش العربي فكانوا جميعاً يحملون الى الشرق من الفسيفساء وأشياء أخرى هي من أبدع ما أنتجه فن نحت الرخام الملون وفن الطلاء بالميناء الدقيق الناعم الشبيه بأفنان الأزهار.

واقترب هارون وجعفر يوما من جماعة من التجار كانوا يساومون تاجراً من قرطبه ويناقشون فى سعر قطعة

= والوقوف على اخلاق اهلها وعاداتهم . ففى سنة ٩٢٠ أرسل الخليفة المقتدر ابن فضلان فى بعثة علمية وذلك قبل أن يقوم ابن بطوطه برحلاته الغريبة المدهشة إلى بلاد الشمال .

من الحرير المطرز بالذهب والفضة صنعت فى مصنع الأمير الأموى فى أسبانيا وتطور الحديث بعد أن كان تجارياً واتخذ شكلا سياسياً . فكان العربى الاسبانى يفخر بمواهب أميره وتجار بغداد يفاخرون بمواهب هارون . وتحول الحديث الى المقارنه والمقارنات وإن كان فى بعض الأحايين مؤلمة إلا أنها مفيدة وسمع هارون بهدوء الانتقادات الموجهة إليه من أحد رعايا خصمه الأموى الاسبانى فتجهم وجه العباسى عفوا ثم عاوده صفاؤه إذ سمع المديح الموجه إليه من تجار بغداد لقد كان إذن محبوباً من الشعب يقينا إلى حد بعيد . فاشتبك فى الحديث وتظاهر بالاهتمام لترهات القرطبى وموافقته عليها فعيل صبر التجار البغداديين وألقى عليه أحدهم سؤال قال :

من أين جئت أيها الشاب ؟

من غرناطه

وفى أحد الأيام قص هارون على أحد كبار تجار الجواهر أن والده وهو تاجر من الفسطاط « مصر » قد أرسله إلى بغداد للسياحة أولا ثم لشراء أكبر كمية من الياقوت يعثر عليها فى سوق العاصمة فأصغى إليه الجوهرجى ثم هز رأسه وأجابه بأن ذلك متعذر ومستحيل. فلئن باعه الياقوت فانه يبيع فى نفس الوقت رأسه للجلاد لان الياقوت يشتريه جعفر.

ومن يكون جعفر هذا ؟.

فنظر إليه التاجر نظرة احتقار : إنه لابد غريب عن الديار ليجهل من يكون الوزير البرمكى. صديق أمير المؤمنين الذى لا يفارقه لحظة الذى كان يشترى الجارية بخمسين ألف دينار . ويحجز لحسابه . لو شاء ذلك جميع كميات الياقوت فى سوق بغداد ويصرف فى عام واحد إيراد ثلاث ولايات فاذا صادف أى أمر منه اعتراضاً أو

مخالفة فان جزاء ذلك المخالف الوقح يكون ثمانين ضربة سوط هذا ان لم يدفع ثمن وقاحته برأسه وبدون أية محاكمة .

— لوقدر أن يباع القمر فان أمير المؤمنين يشتريه له .

— وأمير المؤمنين .

فأجابه الجوهرجى بلهجة التأكيد .

— إن أمير المؤمنين أعز الله اسمه يشترى من ابراهيم الموصلى أنشودة ويدفع عنها مائة ألف دينار ويحظر عليه غناءها لأى كان الاه . أما جعفر فيعرض عليه خمسين ألف درهم أكثر منه ويصرح لابراهيم بانشادها للجميع .

فأجاب هارون ضاحكا :

فى هذه الحالة لا أدرى أى الاثنين أجن من الآخر أو أكثر اسرافا أهو الخليفة أم وزيره ؟! .

— حسن عباراتك يا هذا إن كنت متمسكا برأسك كانت النصيحة قيمة فتقبلها الخليفة وانصرف فرحا مرحا

وفى كل عام كانت تقوم سوق الأخبار إلى جانب سوق السلع فكان هارون ورفيقه يلهوان بين جموع الدهماء. وكثيراً ما كانوا يصغون إلى حديث بعض الرواة العاديين وجدلهم فى حوانيت الكتب. وكان هؤلاء الرواة بما يبدو عليهم من المظهر الكاذب وما يقولونه من العبارات الضخمة يتطرقون فى أحاديثهم إلى مختلف المواضيع ويؤثرون على رجل الشارع الذى يصغى إليهم فيستمع إلى بلاغتهم فى سرد الحوادث التاريخية القديمة التى يصبغونها بصبغة خرافية. وأكثر هؤلاء الرواة دهاء وخبثاً كانوا يعلقون على أصغر الحوادث التى تقع فى المدينة والبلاط. ولما كانت بغداد. كسائر المدن الكبيرة. ملجأ طبيعياً يأوى إليه مهاجرو القرى والريف فكان ما يقال من الهذر يجد اذنا صاغية بين الجموع الحافلة المتحفزة للثورة والهياج. وكل قصة مادامت لاذعة أو

جميلة أو مدهشة كانت تصدق فى الحال وتتناقلها الأفواه . فى تلك المشارب والحانات الشعبية كان المـــرء يشاهد الفرح يتجلى على وجوه الشعب والسخرية تتصاعد من أفواهه والغضب يفعم صدره وبين جوانبها سمعت لأول مرة تلك الكلمة المشئومة كلمـــة « زنديق » تقال همسا وتوجه للبرامكة وتصيب جعفر كالصاعقة وعبثا يحاول حرس البرامكة الخاص أن يكم أفواه المتهوسين ويفتك بهم سرا أو جهـــارا فان تلك الكلمة البذيئة تظل عالقة باسمهم كسبة فى وجه الدهر [1]

وفى أحد مطاعم المدينة كان هارون يستمع إلى حديث جيرانه وكان أغلبهم من المتعلمين فكانوا يتناقشون فيما بينهم عن السياسة الحالية . الحرب مع البيزنطيين

---

(١) وكانت توجه الى الخليفة أحيانا كلمات طائشة فيقابلها بالابتسام قائلا « انها سفسفة جهلاء » ثم يواصل تجوله مرحا مسرورا

والحرب مع الخزاريين وثورات أفريقيا وخراسان والضرائب الجديدة وتعيينات الموظفين وتزييف البضائع وكل ماعداها.وفى مساءذات يوم بينما كان هارون وجعفر جالسين على ايوان فى خان يتردد عليه السياح والغرباء والتجار والفضوليون . التقيا بأحد المداحين هو مروان ابن أبى حفظه أبوه يهودى وأمه غريبة وأخذ المداح يشيد بفضائل المهدى ويحط من مجد هارون الرشيد بانتقاد العلويين .

وعند أحد باعة المرطبات حيث يتردد الطلبة لاحظ هارون وجعفر يوما ما أن الشاربين يطلبون أشعارا من شخص مهلهل الثياب وفد عليهم . فهل هو شاعر؟ لقد كان هذا المتشرد شاعرا فى الواقع ولسوف يسحر هذا الشاعر الشرق بأسره بعذوبة ألفاظه فهو مسلم بن الوليد [1] الذى

---

١ أطلق عليه هارون « صريع الغوانى »

كان يعيش عيشة الجوالين وكثيراً ما كان لا يجد لنفسه مكانا يأوى اليه ليلا . لقد كان غرامه بذيئا ولكن مخيلته كانت تلقى عليه وشاحا من الكمال ومتانة أسلوبه تجعله فى مصاف أرفع الشعراء كعبا وأطولهم باعا . ويقال إن هذا الشاعر العربيد كان يتمتع بصوت رخيم فكان ينشد الشعر فرحا مسرورا ويتغنى بذلك الخمر الذى يصنعه المزدكيون ويعاقره ويمتدحه بغير ماخجل ولا ورع وهو الخمر الذى لم يبخل به هارون على نفسه فى ظل قصره .

ولسوف يلتحق مسلم بن الوليد بحاشية الخليفة وهناك يلتقى بأبى نواس الخرافى وهو أيضا من الشعراء المسفين عشاق البيان والقودية وعباد الفسق والدعر الذين اجتازت مهازلهم ومباذلهم الاجيال منذ ألف عام ونيف ولا زالت تجد حظوة بين الناس حتى فى هذه الأيام .

لعمري لو أن بترون العظيم قد أهمل صدفة أن يتخيل أو يصف عشـــاء « تريمالخيون » الشهير فان تلك الصفحات كان يمكن أن تتدفق و تنفجر بما لا يقل عنهـــا وصفا لاذعامن عبارات أبي نواس و كـــتاباته المسفة .

وهكذا بينما كان أبو النواس يقـول ما يستطيع قوله تاركا لعقل من يفهم أن يتصور ما لا يمكن أن يقال فان قصائد بن الأحنف الغرامية وغزله ينساب رقة و نعومة فى نفوس مريدى « أبيقـور » كأنه العزف ومقطوعاته المثـــيرة تضطرم خافقة كرقيق أجنحة الطير السابحة فى الهواء !

واتجه هارون ذات يوم وهو دائم التنكر نحو وسط أقل رعونة فقاده الحظ يوما إلى مدرسة الطب التى أسسها جده المنصور حيث تناقش نظريات أبقـــراط ومؤلف « بيناكس » لجاليانوس ومؤلفات ديوسكوريدوس وحيث أغلب من فيها من الطلبة يتـابعون دراساتهم

بفضل ما تمده بهم زبيدة من النقود . ثم زار كذلك المعامل الفسيحة التى شيدها أبوه المهدى حيث توجد جموع الكيماويين والمشتغلين بالأعشاب منكبين على تقطير واعداد العقاقير بتلك الدقة والمهارة التى لم تضارع فى علوم الصيدلة والتى عادت عليهم بالشهرة العامة والاعجاب مدي أجيال عدة .

وفى يوم آخر قصد هارون وجعفر عرصة مدرسة حيث استمعا إلى عالم متكىء إلى أحد العمد وهو يلقى على الطلبة درسا يبرهن فيه على أن المربع القائم على وتر الزاوية يساوى مجموع المربعات القائمة على الجانبين الآخرين . وفى ذلك دليل على أن العرب فى ذلك العصر قد نبشوا قبور العلماء وأحيوا ذكرى جبار من جبابرة الأنسانية وهو بيثاغورس .

وبينما كان أحد المشتغلين بالرياضيات يترجم عن

اليونانية الأجزاء الأولى من كتاب « العناصر »
لأوكليدوس الاسكندرى كان رياضى ثان يضع أساس
الهندسة المسطحة ورياض ثالث يدرس هندسة المثلثات
المستقيمة ورابع يسير بتلاميذه فى طرقات علم الجبر
المتعرجه. ومن أين جاء هؤلاء الرجال . أمن مدينة دلفوس
أو ساموس أو أثينا أو الأسكندرية . لقد جاءوا من الرقة
والكوفة ودمشق وبغداد أو من أقصى صحارى بلاد
العرب . ليس فى ذلك مايهم ما دام هؤلاء المشغوفون
ببلاد اليونان القديمة تلك البلاد التى نبذتها روما بتأثير
رهبانها فى ذلك العهد والتى تجهلها وتتناساها بيزنطة
لانشغالها بمنازعاتها الداخلية الدينية بسبب التماثيل
والصور . هؤلاء المشغوفون قد جمعوا وترجموا وأنقذوا
من الظلمات الأضواء التى طفرت من أدمغة عجيبة مثل
بيثاغورس وأرخيميدس وزينوفون وأوكليدوس. وانهم

الآن يبذرون بذور العبقرية اليونانية الخالدة فى عقـول العرب الخصبة . ويعـدون تلامـذة ومريدين ليخلفوهم من بعد . ولسوف يقوم بغتة من بين جموع هؤلاء الطلبة رجال مدهشون أمثـال الحجاج الحاسب وأبى زيد حنين ابن اسحاق وعبدالله الخوارزمى وعلماء الحساب الأخـوة الثلاثة محمد وحسن وأحمد أبناء شاكر وآخرين غيرهم .

فى مختلف المدارس ، وبغداد تكتظ بعشرات منها ، يختـلط هارون وجعفر بالجموع الصاغية المنكبة على الدرس . ويستمعـان إلى تعاليم فلسفة حديثة متـــأثرة بالفلسفة اليونانية ، فمن وراء افلاطون الذى كان أحـــد الفلاسفة العرب يعلق على كتابه « الجمهورية » يبـدو سقراط ، ومنها يعرفان خير ما أنجبتـه الانسـانية . ومن وراء « كسينوفون » يتعلمان كيف ينظمان ويتقنـان دقـة الملاحظة وان كانت تلك الدقة لا تنقصهما ثم يتجلى امامهما

أرسطاطاليس أسمى الفلاسفة عبقرية وأوسعهم علما وأكثرهم دقة وتدقيقا فيخط فى أفق علماء العرب أساس التفكير العظيم .

أما علم المنطق الذى وضعه أرسطاطاليس فانهم يطبقونه ، وعلم ماوراء الطبيعة لأرسطاطاليس أيضا فانهم لا يأخذون به وينوعونه وعلم النفس لأرسطاطاليس الذى يحللونه بتلك الدقة واللباقة فانه سوف يكون نموذجا لعلم النفس الذى وضعوه لأنفسهم . أما كتابا « السياسة » « والأنواع » لأرسطاطاليس اللذان كانا موضع نقاش حاد فيما بينهم فانهما قد أثارا حماسا عظيما ذى مغزى عميق عند هذا الشعب المفكر الحساس لكل ما يخلقه العقل من جمال

أو ليست هى روح أرسطاطاليس التى كانت تنطق أمام هذا المجتمع الصامت المشدوه خلال صوت ذلك

العالم العربى الواضح الذى يفسر « أن اللحظة لا تتجزأ » و « أن كل ما يتغير يتجزأ » و « أنه لا يمكن للشىء أن يتحرك ويظل هادئا فى اللحظة نفسها » ... و « ان الحركة يمكن أن تتجزأ بالنسبة لحيز الوقت الذى تشغله وبالنسبة للحركات المنفصلة لأجزاء الجسم المتحرك » ... و « أن كل شىء أصابه التغيير كائن بمجرد حدوث التغيير . فى الشىء الذى استبدل به » و « أن الوقت الذى يتم فيه الشىء تغييره لا يمكن تجزئته » ومعنى ذلك « اللحظة »

وبعد ذلك أيضاً « يوجد لكل شىء وقت مضبوط يتم فيه تغييره ولكن لا يوجد لشىء وقت مضبوط يبدأ فيه تغييره » « الشىء يتغير فى كل جزء من الوقت الذى يستمر فيه مدى تغييره » ثم « كل شىء يتحرك قبل استقراره » « الاستقرار يتم مع الوقت » « لا يوجد للشىء وقت محدود للاستقرار »

واذن ؟ فان الشيء طيلة الوقت المحدود الذى تستمر فيه حركته لا يستقر فى مكان محدود . فهل فى ذلك كله دحض لحجج زينون ضد الحركة ؟ لا شك فى ذلك .

وفى ضواحى الانبار . فى بستان وضيع يقيم فيه شيخ فلكى كان لا يشك بحقيقة شخصية الزائرين الجالسين أمامه فى ليلة هادئة صافية الأديم . كان هارون ورفيقه الذي لا يفارقه يستمعان إلى هذا الشيخ الذى كان يقودهما إلى عالم غريب بظواهره المدهشة المتغيرة غير المستقرة . لقد كانت الكائنات . فى نظر هذا الشيخ التائه فى غياهب اللانهائى . لا تبدو إلا كأجزاء من الذرة التى تتطور فى دائرة ضيقة ودورها الضئيل لا يتخذ – آنئذ – إلا أهمية ملائمة للكرة المحدودة التى اضطرت إلى الخلود فيها . فما هى حياة الانسان فى نظر هذا الفيلسوف الباحث عن

اللانهائى ، أنها كذرة من الرغام تتحرك وتضىء فى شعاع
من الشمس . والزمن ليس إلا ما تستغرقه ضربات
الجفون ببعضها . وعمله ليس إلا مناقضات مستمرة .
وفكرته العميقة أو الجوفاء ليست إلا أرضاء للعزة
النفسية والكرامة . أن العنكبوت ليفخر باصطياد ذبابة
والرجل ليفخر باصطياد رجل . ياله من زهو !

إن الذين اعتادوا النظر إلى السماء فانهم إذ يخفضون
أنظارهم نحو الارض لا يرون إلا نفوساً صغيرة عارية .
نفوساً صغيرة تحمل جثثاً تتخبط ببعضها عند مفترق
الطرق وتصطدم فى كل مرة بنفس الحواجز . إن هى إلا
كائنات خيالية تسعى لاهثة على عجل من أمرها شارة
محدودة فوق سطح الأرض التى لا تعد إلا نقطة لا أكثر
من نقطه المعدودة الفانية فى وسط هذا الفضاء غير المحدود .
وعندما تتوهم تلك الكائنات أنها تمنع بشرائعها وتؤذى

بتأنيبها أو تنفع بمديحها وثنائها فما أعظم افتراضها وادعائها .

ليس للزمن حدود إذ أن عاطفة الانسانية تنعدم عنده ولا يدهشه شيء . لقد ضيق الله الأرض ولكنه لم يضع حدوداً للسماء . وحياة الأجيال بأسرها لا توازى سير تلك الابراج التى تعتبر ثوانيها مئات ودقائقها آلافاً وساعاتها ملايينا من السنين . وهناك على مدى ملايين من الفراسخ فى ذلك الفضاء المجهول يوجد عدد من العوالم المجهولة المختلفة بقدر ما يوجد من الكواكب المنظورة وغير المنظورة فوق رؤوسها .

ولا يلبث هارون أن يشعر بأنه ضئيل وتائه فى عظمة السموات أمام كتلة الكواكب المتحركة التى تسير نحو غاية محدودة ولا يمكن لأية إرادة أن تحددها أو تمنعها أو توقفها أو تحطمها . فاذا كان متشربا بعظمته وسلطانه فلسوف يشعر بأنه قد ضؤل وانكمش أمام قوة

الحجج التى يتمخض عنها دماغ ثاقب يكشف بصفائه عن خبيئة النفس البشرية ويظهرها عارية زائفة .

كان هارون يخرج من تلك المحادثات الفجائية المليئة أو الجوفاء مفكراً متردداً وأحياناً مسروراً وغالباً بادى الاهتمام إذ يضيف إلى معلوماته ومعارفه . وهى واسعة . شيئاً جـــديداً . على أنه يخال أن شعوره الحاد وتأثيره لا يمكث طويلا ولا يترك أثرا ولا يتخذ غاية لجولاته المستمرة فى جميع الأوساط وفى جميع الانحاء . وأن المرء ليتساءل إذن عما يلهمه أو يجتذبه ويضطره إلى البحث والتنقيب والسعى خلف شىء يتجاوز حاجة الحركة الملحة أو فضول الباحث أو عالم النفس . أهو صوت الشعب لن يسمعه يئن تحت نير البرامكة إلا عند ما يشعر أنه بالذات مهدد منهم فى سلطانه . فلقد أوشك أن يكون عالماً نفسانياً إذ أنه لم يلاحظ منازعات أفكاره وتضاربها دون أن

يحللها وأنه لم يفهم إلا قليلا مشاعر الغير وشعورهم دون أن يعرف كيف يتقبلها . أما فيلسوفا فلن يكونه إلا قليلا وعرضاً إذ أنه يتدخل عند استفحال الأمور باحثاً عن حـــل لها دون أن يجده . لن يرى قط الغير إلا فى مرآة نفسه ولا يرى نفسه خلال الآخرين إلا فى مرآة أنانيته التى لاتجاري ولا تضارع . وعلى هذا قد لا تكون جولاته سوى عادة تولدت عن الضجر أو ميل طبيعى يشعر به العاطلون ممن لا عمل لهم .

أهو نفس الرجل الذى يحاول وهو يتدثر بالخـــز المذهب . أن يروح عن نفسه فى حين أن حجرات قصره الخرافية تضم نيفا وثلاثمائة أو أربعمائة راقصة من أجمل الكائنات البشرية التى ابتدعتها الطبيعة وهن فى انتظار اشارة منه لاشباع رغباته .

فبينهن السمر ذوات الابتسامات المقلقة والعيون

الخفية الساحـــــرة . والشقر ذوات النظرات الزرقاوية الشبيهة بمياه الغدير الصافية المتلألئة وأقدامهن الخفيفة تكاد تلمس أعتاب الفسيفساء إذ يرقصن على نغمات بطيئة رقيقة أو سريعة مضطربة كأنهن أوهام تحملها نفثات الضجر كما تحمل العاصفـة أوراق الشجر المتناثرة . لقد كن جميعاً إن سمراً وإن شقراً يرقصن حول أحواض من البللور تسيل فيها مختلف عطور بلاد العرب وأعذبها نكهة وأطيبها عرفا . كن يرقصن حائرات والهات فى ليالى الشرق الحارة وعضلاتهن متوترة وابتساماتهن جامدة . كن يرقصن له وله وحده . فاذ اقدر للبعض من أجملهن أن يحمل قلبه على الخفوق أسرع من المعتاد فلن يكون ذلك حباً أو مجرد لهو لأن الروح بعيدة نائية عن ذلك المنظر المصطنع الوهمى . أن الخليفة يلهو .. ولـكن هلا كانوا يرون أن الرجل يضجر ويسأم[1]

---

(١) كما رويت كتب التواريخ والاغانى عن حفلات البلاط من شعر بأنواعه ورقص وسماع وشراب وما الي هذا ولن يضير كل هذا أو بعضه ما قدما من التعمق فى حـل طلاسم أسرار الامبراطورية وما فيهـا من حكم عام أو خاص (جل من تنزه وعظم من عصم ولـكنها صورة تاريخية للعظة والاعتبار)

كان هارون يرأس حفلات وولائم تفوق حد الوصف . وإنه لمن الخروج على الحق والحط من كرم الخليفة العظيم الذى كان مضرب الأمثال إذا نحن حاولنا ألا نؤكد أن التاريخ لم يذكر كثيراً — فيما خلا الولائم الرومانية — أدعى إلى الدهشة والاعجاب من حفلاته ولو اقتصر أمرها على ما كانت تتطلبه من الاسراف والتبذير . ومن أمثال ذلك الاسراف أنه صرف أربعين مليون دينار بمناسبة زواجه من زبيده . فالاحتفالات التى أقامها أربعين يوما قد تطلبت فى لغة الحاسبين مليوناً فى كل يوم . مع استثناء الهدايا والعطايا التىقدمها إلى أهله وذويه ووزرائه ورجال حاشيته وعبيده وجواريه وجنوده ومع استثناء الاحسانات التى وزعها على الشعب والخمسين ألف رداء الشرف التى أرسلها إلى ولايات امبراطوريته لكبار موظفيه والأشراف ومع استثناء بدرات اللؤلؤ الرفيع

التى نثرها تحت أقدام العروس .

بل هناك ماهو أدهى . فاذا أعجبته جارية ـ ومثل هـذا الحادث كان يحدث كثيراً ـ فانه كان يدعوها أن تضع يدها فى أكياس الأحجار الـكريمة المكدسة فى خزائنه ويهبهـا منها ماتنضم عليه أناملها . ولـكن لما كانت يداها صغيرتين فان هارون كان يضم اليها يديه وهمـا فى الواقع أكـبر حجما وليس إلا الله يعلم ما كانت تخرجه هذه الأيدى مجتمعة

وفى مرة أخرى شيد مقصفاً خاصـاً لمحظية لم يقض معها إلا لحظات قليلة ولقد كانت تلك المحظية بعيدة الذكاء فأنجبت له ولداً هو المعتصم وعندما دفعهـا استياؤهـا أو نزعتها إلى القول « مولاى إن أبواب هذا المقصف لاتليق بمقر ملك » عبس وجه هارون واستدعى مهندسه وأمره أن يتخيل شيئـاً لم يتخيـله امرؤ من قبل ليحل محـل هذه الأبواب أو كان جزاؤه الانتقال من عالم الوجود . وأنتم

تعرفون كيف يكون ذلك فأخذ التعس يفكر فى وسيـــلة ينقذ بها رأسه فاستبدل جميع الأبواب بأبواب من العاج . حقـاً أنه لم يوجد من فكر فى مثل هذا البذخ لا كسرى ولا نيرون بل ولا كيلوباتره . لقد وصلتنا هذه الأخبار من أحد مؤرخى هذا العصرفهو وان لم يراقب مولاه من خصـــاص أبواب القصر أو يتاصص ليسمع ما يدور خلفها فانه كان يعلم أكثر ممايعلمه سان سيمون من الخفايا التى نقلها لنا عن لويس الرابع عشر .

ومع ذلك فانه لا يوجد من يستطيع أن يصف طيش هارون الرشيد وولائمه وحفلاته غـير رواة هذا العصر ومؤرخيه الذين تولتهم الدهشة وتملكتهم الحيرة من ذلك الترف ووقفوا مشدوهين أمام الثيـاب الثمينة والجواهر النفيسة وأمام ألوان مختلف الأطعمـة النـادرة التى كانت تقدم فى أطباق من الذهب المطعم بالأحجار الكـريمة

والميناء وتحملها الجوارى . لقد كانت هذه الحفلات تكلف دخل ولاية بحذافيرها إذ كانت الأكواب مصنوعة من قطعة واحدة من الفيروز أو الزبرجد وهى أكواب كان السقاة اليونانيون والمزدكيون يملأونها برحيق الســكرم المحرم . فيجرعها المدعوون كالحكماء الذين ثقل عليهم حمل حكمتهم فألقوا بأنفسهم فى جهنم ليتنزهوا بين نيرانها قليلا !

وهكذا فمن العبث أن يتكلم الفلاسفة عن الفضيلة بألفاظ مريرة فان أبا النواس كان رابضاً فى ركن وهو يتوسل الى الليل أن يلتمس من الفجر أن يؤخر ظهوره لأن تلك اللحظة كانت جــد جميلة .أما الندم فلن يأتى إلا بعد أن تبدأ عوارض سوء الهضم وتذبل أكاليل الأزهار وتنطفىء الشموع .

وهو نفس هارون أيها الأصدقاء الذى كان لبعض أيام خلت أو بعد بضعة أيام يرافق صفيه الذي لا يفارقه

إلى أحد الأحياء المجهولة الوضيعة ويقبل عن طيب خاطر أن يشاطر أحد مضيفيه طعاما حقيراً من خبز الجاوادار أو لبن الماعز.

وهو أيضاً نفس ذلك الرجل الذى كان يجلس على عرش يساوى وحده فدية ملك محاطاً بكبار وزرائه وضباطه وخلفه خمسماية عبد بين أبيض واسود. لقد كانت هناك ثلاثين ألف طنفسة من الطنافس المشغولة بالذهب والحرير تحلى جدران تسع قاعات وهى قاعات كان يجتازها السفراء والعظماء عندما يقابلهم الخليفة.

ولقد روى لنا سفير بيزنطى أنه عندما وصل إلى بضعة فراسخ من بغداد وبعد أن مرّ أمام جيش مؤلف من ١٨٠ ألف رجل مدججين بالسلاح قابله عند باب العاصمة الوزراء وقدموا له أفخم الهدايا من لدن الخليفة منها مائة جواد أصيل مجهزة وثياب فاخرة له ولحاشيته

ولاحظ السفير أن ثمانية وعشرين ألف طنفسة تغطى أرض الطريق الذى قطعه مع حاشيته إلى القصر وأن عدداً من السفن المزينة بأفخر الزينة كانت تمخر عباب نهر الدجلة وأنه سمع بداخل حدائق القصر زئير مائة أسد رابضة الى جانب حراسها الأفريقيين فكان منظرها يتعارض ويتناقض مع بهاء المنظر الآخر وعظمته [1]

كان البطريق البيزنطى متمتعا بأدق أنواع الترف ولكنه لم يتمالك نفسه أزاء ذلك من أن يقف مشدوهاً محدقا عند رؤية تلك العجائب ثم تزداد دهشته عندما يلاحظ أن هذا الملك الشرقى الذى انحنى أمامه فقابله بابتسامة لطيفة رقيقة . ولكن سامية . تمكن أن يحيط عرشه بتلك الأبهة والعظمة المروعة التى تضارع مايحيط

---

(١) ولربما كانت سامية من أعاجيب الفكر السياسية كالتى جرت بين معاوية وعمر بن الخطاب حين استقتله ببلاد الشام بعد فتحها.... ولكن ما أحرى الحزم والجد من التفاته والعظمة من غير نقد وما أحرى السياسات الخرقاء والفخفخة من الغناء وسو المغبه ،،،

بعرش امبراطور بيزنطة ان لم يكن أكثر منها .

لاشك أن ذلك كان مؤلماً للامبراطور البيزنطى ومكدراً « لسفيره » واذن فتلك الهدايا والحفاوة وتلك الابتسامة لاتعنبر عن شيء ولا تدل على شيء . ولسوف يستمر النزاع بين بغداد وبيزنطه .

وهناك سفير آخر هو تيبرى سفير شارلمانى الذى لم يستطع أن يخفى إعجابه بهارون ذلك الفارس العظيم الذي كان يمتطى صهوة جواد لا يقدر بثمن ويسير فى طليعة حاشيةمهيبة منالأمراء والوزراء والفرسان ومئاتالخدم والحشم ويتبعه رهط من العبيد وحملة الطبول السود والصقور الشهيرة التى يتطلب ترويضها أموالا طائلة ويذهب لصيد الدراج فى غابات الرقة أو يسعى خلف كلابه وراء فريسة أخرى فى السهول العراقية وفى أيام الاستعراض مادام الأمر لا يخرج عن كونه استعراضاً

إذ لم يعد يمثل الدولة العباسية ذلك الفارس والفاتح الرهيب بل ذلك الخليفة الجالس الذى يبتسم ووجهه يطفح بشراً . كان يحيى هذا الخليفة المائة وثمانون ألف مقاتل وقـــد انتصبوا فى ركابهم الفضى وهم يحملون الزماح وعدداً لا يحصى من الأعـلام أو بعبارة أخرى أصح مائة وثمانون ألف جندى مرتزقة كانوا يحيونه وأنظـارهم متجهة نحو البرامكة !.... فذلك الخليفة لايشبه فى شىء ذلك الشاب الذى يجب أن يكون هارون الحقيق والذى لا يشعر باللذة الحقيقيـة إلا فى لحظات فراغـه التى كان يقضيها من ناحية مع جعفر شاهد حياته الخاصة الوحيد ومن ناحيـة أخرى إلى جانب تلك الفتـاة التى كان يستضىء لطفهـــا وذكاءها وهى أخته العباســـة .



أسرة بنى العباس

٣

تقوى زبيدة وعظمتها . العباسة أخت الخليفة . إحدى حيل هارون الرشيد . زواج عذرى باكراه بين جعفر البرمكي والعباسة . تحالف ثلاثي غريب . مفاجأة . قوة القدر . طمع البرامكة . شك الزندقة

لا شك فى أن العباسة هى الكائن الوحيد فى العالم الذى كان يحسن فهمه فكان يقدرها فوق كل شىء . لقد كان نفوذها على هارون كبيراً فكان يوازى نفوذ جعفر . وهو عظيم . كما كان أحياناً يعلو على نفوذ زبيدة وهو أيضاً كبير

كانت زبيدة وهى من العباسيين مثله إذ كانت حفيدة المنصور على جانب عظيم من الكبر والأنفة وهى تمثل الزوجة الجميلة التقية الصالحة المتمسكة باهداب الدين ولقد

كانت بفضل صفاء ذهنها وسعة اطلاعها . تعتبر قـــوة سياسية ممتازة بل تكاد تكون شريكة فى ذلك العرش الذى ربما كانت تشعر بأنه يتقوض تحت ثقل البرامكة الذين تكرههم بقدر ما كانوا لا يحبونها . وهكذا فانها كانت تحتقر جعفر لتظاهره بمظهر الأمير الكاذب ولاعتزازه بنفسه ثم ادعائه بأنه الوصيف الذى لا يناله شىء . لقد أجمع المؤرخون على تأكيد حقد زبيدة للبرامكة وكراهيتها لهم ولكن واحدا منهم لايستطيع لانعدام البراهين والوثائق القاطعة أن يوضح أو يحدد حصتها فى تلك المسؤليات التى تؤول إليها ولا النفوذ الذى يعزى إليها ويقال انها بذلته لتثير سقوط تلك الأسرة ونكبة المحظى الشهير الذى لاشك فى أنها قد فطنت الى أغراضه السرية وما يضمره فى خبيئة نفسه .

ولم تك زبيدة سامية بعظمة أعمالها بل هى تستحق

التمجيد . إذ أنها . بفضل ثروتها الطائلة الخاصة . قد شيدت المدارس والملاجىء والحمامات والاسبلة والخانات . وهى التى نفذت ضمن ما نفذته بمحض ارشادها وعلى نفقتها الخاصة بناء النفق الجميل الذى يجلب المياه من الطائف الى مكة ويبلغ طوله ٦٥ كيلو مترا ولا يزال مستعملا حتى أيامنا هذه كما أن المدينة المنورة تدين لها بمثل هذا العمل بحفر الآبار وعذوبة المياه وأجهزتها .

وفى عام ١٣٤٩ أى بعد مرور ٥٤٠ عاما لحكم الأميرة نقرأ فى رحلات ابن بطوطة الشهير الى مكة تلك الفقرة الخاصة بزبيدة . ويرى الناظر أيضاً صهريجاً كبيراً يورد الماء لجميع الحجاج وهو أحد ما شيدته زبيدة رحمها الله .أن جميع الفناطيس وجميع الصهاريج أو الآبار الموجودة فى الطريق بين مكة وبغداد وهى آثار تدل على كرم زبيدة كافأها الله وكرم مثواها فلولا عنايتها بذلك الطريق لما

طرقه أحـــد .

ان حسناتهـا التى لا تنضب تعم جميع أنحـــاء الأمبراطورية فكانت تعنى برعاية الآلاف من المعوزين وتمد بالمال أكثر من مؤسسة علمية وتحمى أكثر من عالم وتوزع الصدقات على مئات من الطلبة الفقراء وتشجعهم لقد كانت تقواهـا عظيمة ولذلك وقفت لنصرة المحكوم عليهم والمضطهدين وقد حولت يدهـا سيف الجـلاد عن أكثر من رأس بريئة .

فاذا كانت الامبراطورية والجيش تهللان للخليفـــة العظيم . فان آلافا من الأيدي والقلوب كانت تتجه عفوا نحو زبيدة التى كانت تعطى بصدر رحب وتجزل العطـاء ولا تكف عن الاحسان وأنها لم تظهر لنا قط أكثر تمسكا بأهداب الاسلام الاعندما نطقت بتلك العبارات المأثورة التى نقلها إلينا التاريخ بعد مرور ألف عام . وهى خير مثال

على السخاء والكرم الحاتمى ، سأعطى بغـــير ما تمييز أو تفريق بين مذهب أو جنس وسأعطى كل الذين يمـدون أيديهم »

لقد كانت مهيبة أمارة حتى عند ما تدعوها اللياقة الى الانحناء أمام الخليفة وكانت رنة صوتها لاتفقد من ثباتها وامارتهـا عندما تقول « لقد أمرنا أن يبنى جناح جـديد لمدرسة الطب فى جنداى شاهبور وأعطينـــا الأوامر المناسبة » لقد أصبح الأمر نافذا غير قابل لرد أو نقاش أليس كذلك . وعندما تقول أيضاً « يا أمير المؤمنين انى أرغب فى أن يبنى بالرى ملجأ للمعوزين وفى الكوفة خاناً للمسافرين المحتاجين لتخليد ذكرى بيت بنى العباس » انها رغبة صادرة فى شكل أمر لا أكثر ولا أقل !

كانت زبيدة تجيد ذلك الفن الذى تمتاز به المرأة الشرقية وهو معرفتهـــا التامة باصدار الأوامر فى أنفة

ولكن بصوت عذب وما هو أدهى من ذلك أنها كانت تعرف كيف تتلاشى أمام هارون وهو الأمير والأمير هو الأمبراطورية بحيث كانت تؤثر بتصرفها هذا فى الزوج المنقاد الى نزعات نفسه وتؤثر فيه حتى لتكاد تخجله فينحنى أمامها بدوره . فهل كان يحبها ؟ لعمرى أن أمثال هذه النساء لايحب عادة ولكن يلجأ إليهن عندما تمر أعاصير الافتتان والدوار . إن قلب هارون لأشبه شىء بمحطة يمر فيها جميع الناس فى اتجاهات معلومة أو مجهولة .

أما الأمر الموثوق منه هو أن زبيدة تفرض رغبتها عليه وأنه يعجب بها وما هو أكثر وثوقا هو أن العباسة كانت تشغل فى ذلك العهد مكانة بارزة فى حياته . فهو لم يكن يخفى عنها مشاغله وهمومه ومشروعاته . ولم تكن تمر به مسائل هامة سياسية أو اجتماعية دون أن يعرضها عليها ويناقشها أو يحلها أو يقررها بدونها وكذلك لم تكن تقع

له أمور تافهة أو مفرحة دون أن يطلعها عليهـا لتهلو أو يشاطرها اياها .

كانت العباسة تعرف كيف تحـــذر وتوعز وتقنع وتغري إذ كانت تتمتع بذكاء وقاد موهوب تنتهز الفرص فى حينها وتشرف على جميع الأمور بدقة ولباقة السياسى المحنك الذى خلق ليحل أشد المشاكل تعقيداً وأكثرها غرابة . وكانت تتمتع بسحر حظ والهام خاص للنظر الى أدق المواقف بطريقة خاصة لتعطيها شكلا ملائما لرغبتها الشخصية أو تجد لها حلولا ما كان ليتنبه إليها سواها . لقد كان يطفر منها نوعا من القوة الجذابة التى تؤثر وتسحر وتأسر .

يقينا أنه كان يوجد بين هذا الأخ وتلك الأخت ماهو أمتن من رابطة الدم أو القرابة . لقد كانت توجد بينهما صداقة مؤثرة صريحة نادرة وثقة متبادلة هى أيضاً

نادرة . ولن يجد هارون عند البعض أو عند آخرين تلك
الراحـــة أو ذلك الارتياح وهدوء البال الذى يشعر به
بالقرب من أخته مع استثناء جعفر الذي سيجعل منه
وسيطا بين ضميره وبين نفسه . على أن الساعات التى كان
يقضيها الى جانب العباسة كانت تبعده عن جعفر والساعات
التى كان يقضيها مع جعفر كانت تحرمه من صحبة العباسة .
وهو مع ذلك كان لا يستطيع أن يتخلى عن هذا أو هذه .
ولذلك تخيل حوالى عام ٧٩٧ وذلك ارضـــاء لرغبته
الشخصية وراحته وأنانيته أن يجمع حوله هذين الرفيقين
الضروريين لحياته بطريقة لا يخرق بها حرمة شرائع اللياقة
بأن يزوج العباسة من جعفر حتى يتسنى لهذا الأخير أن
يحضر شرعا اجتماعهما ومحادثاتهما المشتركة على أن تلك
الوسيلة الشرعية التى لا تخرق حرمة شرائع اللياقه أو الرأى
العام السخيف الذى حاول هارون الدفاع عنه كان يخرق

حرمة الشرائع الضرورية للحياة البشرية ويتحدى الله فى ارادته . إذ فد تقرر بعد هذا الزواج الظاهري المشروع ألا يتم هذا الزواج ويظل عاقراً حتى لا يقال أن أميرة من بيت الخلفاء العباسيين قد تزوجت من أحد أتباعهم .

إن تلك الحيلة السخيفة التى تخيلها هارون لهى أحد الدلائل الظاهرة الجلية على عدم خبرته بعلم النفس (١)

ففى تلك الحياة الغريبة غير العادية المخلة بالأخلاق التى كان يعيش هؤلاء الثلاثة لو قدر أن يعد فى المستقبل أحدهم زائدا عن الحاجة فلا شك أن هذا الزائد سيكون هارون . ولكن لم يكن لهارون على الأقل أمتع من تلك الساعات التى كان يقضيها بارتياح تام وسرور لا يضارع بصحبة جعفر والعباسة فى ظل أزهار حدائق قصر الأنبار

---

(١) أو هو عالم نفسانى ولكنه صمم على أبراز الأقدار مدعمة بالحجج والبراهين على حقيقة التضحية البرمكية وما كان أغناه ، ولكنها تعد مأساة الخطيئة أو سخرية التاريخ أو هى نتيجة غلطة حتمية للتخلص .

اليانعة حيث كانت المناقشة تدور حول الفروقات الموجودة وغير الموجودة بين الذكاء والعاطفة .

ولم يك هارون فيلسوفا ولكنه كان يستمع بالمناقضات الفلسفية التي يناقشها ثلاثتهم كما كان يستمع بغرابة ادراك العباسة لها والطريقة البارعة التي كانت تدير بها المناقشات على اختلاف أنواعها . وليس أحب الى نفس الرشيد من تلك الساعات القصيرة التي كان يقضيها فى مكتبته الفاخرة فى بغداد وهو ينصت الى العباسة وهى تلقى أبياتاً من الشعر كانت تعرف كيف تثير بها النفس بنبرات صوتها .

لسوف يكون لتلك الساعات وقع سيء ومؤلم على جعفر لأن السحر الذى كان ينبعث منها ويؤثر فيه يوما اثر يوم لايلبث أن يصبح لديه ضرورة ملحة فيختلط بدمه كالسم . ولسوف تأسر نغمة هذا الصوت كيانه وتأخذ

عليه جميع مشاعره فتوقعه فى حبائلها .

لو أن هذه المسألة قد دبرت للانتقام والوقيعة ـ وهذا أمر غير معقول ـ لما كان هناك انتقام فى تلك الحالة أحكم تدبيرا فى تلك الساعات السعيدة لهارون والمؤلمة لجعفر إذ أن العباسة لم تكن توجه اليه الحديث مباشرة . وسواء أكان ذلك حياء أو كان دلالا فانها كانت تخفض دائما أنظارها الى الأرض فى حين أن صوتها كان ساحرا مؤثرا وكانت أصابعها الناعمة لاتدل على أى قلق أو اضطراب .

وكانت الأفكار المتناقضة تتضارب فى مخيلة جعفر المضطربة وتعقبها المشاعر المختلفة وإذا كانت يده فى بعض الأحيان تتقلص لجأة على قبضة خنجره المرصعة بالأحجار الكريمة . فهل كان ذلك منه ثورة اجرامية أم أن ذلك كان لايعدو حركة عادية لمن يحاول

أن يتناول شيئا بيده عسى أن يستعيض به عما لا يستطيع أن يدركه فيحافظ على هدوئه وسكينته .

وهكذا لم يعد يبق أمام جعفر ليتحاشى هذا السحر وتأثيره الا الانغماس فى الملذات ليبعد عنه صورة العباسة التى كانت تلازمه . لم تكن تلك الوسيلة من نوع جديد . ولكن ماهو جديد . إذا نحن صدقنا مانقله الينا الرواة بدون أن ندهش لاباحية هذا العصر . هو الوسيلة التى اكتشفها والد جعفر . كان يحي البرمكى لا يأل جهدا ليبعد عن مخيلة ابنه خطراً كان واثقاً من وقوعه فكان فى كل يوم يهبه حورية جديدة . ولجأ البرمكى الجميل الى الخمر عسى أن يجد فيه ذلك المسكن الذى يلجأ اليه اليائسون . وظل هذا الأمر شهرا وأشهرا . ولكن نسيان الرغبة الشرعية التى كان هارون يحول بينه وبينها لن تأتيه عن طريق الفسق والعربدة ولا عن طريق السكر ويقينا انه لم

يشعر الا بالقليل من اللذه دون أن يرضى به مطلقاً .

ولأول مرة فى حياته . ولا شك فى أنها حياة تافهة تلك الحياة العاطلة الزائفة القائمة على المنفعة والكسب والقسوة والاحتدام وشهوة ليلةلاتعقبها ثانية. وجدجعفر نفسه ازاء عنصرقوى مجهول . ذلك الشعور الذى يستولى على المرء ويهزه ويثير فيه تلك التقلبات غيرالمنظورة وغير المعقولة . وتلك القوى التى تحنى الرؤوس المتجــبرة . وتحمر لها الوجوه الكالحة وتبعث شعور الحياء من لحده وتطهر اللوثة القديمة . ولأول مرة فى حياته شعر بنيران الألم الأدبى التى تلهب الأحشاء لتطهر الأوراق وتحطم لتصلح وتجدد وتتولد لتخلق رباط الجمال وما الجمــال الا ما هو الهى فينا ...

انه الحب .

ان للحب وحده تلك السلطة التى يمكن بها ايجاد محور

قوى تدور حوله وتنمو واحدة تلو واحدة جميع المشاعر المتناقضة التى تتآلف وتتآخى فى انسجام عجيب فى ظل كل منطق وتجد فى الحب عقلا ممتازاً .ان ذلك العقل الممتـاز كائن منذ أمد بعيد وإذا لم أخطىء فانه من عهد آدم الذى تعقدت حيـاته بحواء التى عقدت بدورها كثيراً من الأمـــور .

ان للحب وحده ذلك الامتياز الفريد الذي يضعف الأقوياء ويقوى الضعفاء ويشجع الجبناء ويجعل من الشجعان جبناء . ويوقظ المطامع الراقدة ويوعز بالمخاوف فجأة ويثير الشكوك الغريبة . ومن مميزات الحب السحرية أن يحبب البؤس والشقاء ويسمم النعماء والرخاء . وهكذا فان جعفر الذى وصل الى قمة الرخاء كان يهوي الى أعماق الشقاء البشرى فى ساعات الهنـاء التى كان يقضيها بصحبة الرشيد بحضرة العباسة كان ينتقل بغير ماتطور من

الحماس المكبوت الى السخط التام ومن اليأس المدلهم الى الأمل الكاذب ومن السخرية المحتدمة الى عدم المبالاة لكى يتدرع . ولكن عبثا . ضد ذلك السحر المشئوم فكان يجب عليه أن يراقب انفعالاته ويكبت عواطفه الثائرة التى تكاد أن تنفجر وتفضحه باشارة أو كلمة فتكون سبب هلاكه .

وهل لم يك فى الواقع هالكا حين قدر له فى ذات مساء من أمسية الحزن والشجن أن ترفع نحوه لأول مرة أهداب عينيها الناعمة فينتفض بغتة ويشعر بسرور عظيم مجهول إذ يتوهم بأنه قرأ فى تلك النظرة التى لم يجد لها شبيها ما يدعو الى الاحتمالات والامل .

أم عساه أن يكون قد أخطأ لسوف يسائل نفسه ويكرر هذا السؤال دون أن يجد حلا أو جواباً .

لايوجد بين النعيم والجحيم سوى خط رفيع كما

تعلمون فاذا كان جعفر قد أدرك باب النعيم فهل الجحيم هو الذى فتح له أبوابه فجأة ؟!.

لئن كنتم قد قرأتم « دانت » — « دانت » العبقرى الذى جاس متفرجا فى أنحاء جحيم لا قرار له ولا نهاية وقذف فى جوف الأعماق باللعنات الصائبة — لوجدتم أن جعفر ، وقد تمسك بأهداب حلم على حافة هاوية يشبه شبها غريباً بعض تلك الوجوه التى جاء وصفها فى « المهزلة الالهية » لقد كان على شفا اليأس عندما فاجأه بصيص من الوهم ثم تناولته الشكوك بغيرما رحمة حتى كادت تحطمه لقد أصبح على وشك الانهيار انهيارا تاما قبل أن يشعر بذلك اليقين الذى ملأ مخيلته بالاضطراب . وعند ما تقف نظرة العباسة القائمة الرقيقة عليه فى حزن وعند ما لا يرى جعفر فى تلك النظرة غير الحب فانه لا يرى فى نهاية أحلامه سيف عزرائيل يلمع ويسطع ثم تقف

تلك النظرة على هارون ولاول مرة يشع منها بريق من الحقد . فهل لاحظ هارون تلك النظرة . . . كلا .

ان هارون لن يفهم معنى الملاحظات الدقيقة والملابسات والايعازات التى كانت تثيرها العباسة فى الأوقات المناسبة لتبعد الشك وتستر عواطفها واختلاجاتها الحقيقية ، كانت العباسة تمثل دورها بمهارة فائقة فلا يفضح شىء من سرها فى بادىء الأمر على الأقل وأنها لن تبدو مالكة لعواطفها ولا أسمى منها إذ كانت تهاجم بثبات مدهش خلال مناقشتهم آراء هارون فتحيره وآراء جعفر فتناقضها ولكنها كانت تنقده بجرأة وحنكة كالقائد المحنك فى ساحة المعمعة . وهكذا كانت تسيطر على أحدهما وتشله كما كانت تجتذب الآخر وتقيده . وكانت تسحرهما وتقودهما الواحد تلو الآخر فى حركة اجماعية وتقبض عليهم بين أناملها !

انها الحيلة فذة سامية تقدم عليها امرأة عاشقة لتضلل بها من يمنعونها الحب لأنها تحب .

ان « أوفيد » على ما أظن هو الذي قال لنا فى « استحالاته » ان النظر أعطى للرجل ليخونه . وفى ذلك ما يدعو الى بعض الشك ثم جاء « تاليران » وأتم سلسلة السفهاء الخالدين بأن أوحى للانسانية بتلك الحجة المخيفة بقدر ماهى صحيحة « لقد أعطى اللفظ للرجل ليخفى به فكرته » انها وجهة نظر فحسب . وهو تفسير نسلم به أو لانسلم به طبقا لحالتنا النفسية أو الفعلية . ولقد صدق كل من أوفيد وتاليران كما أنهما لم يصدقا .

فاذا كنا لانستطيع أن نعارضهما لأن أحدهما نظر الى الأمور بمنظار قريب جدا ولأن الآخر ذهب بقوله شوطا بعيدا فاننا على نقيض ذلك يصعب علينا أن ننكر ان المرأه قد تحلت بشىء اضافى من الخبث والدهاء ليتسنى لها أن

تفتح الأبواب المغلقة أو ليكون لها بمثابة « بوصله » — لو فضلتم هذا التشبيه — لتمخر بها عباب اليم وتتلافى الاصطدام بالصخور المهلكة فى جميع الأماكن الخطرة والمواقف الخطيرة .

وهكذا عند ما كتب أحد الشعراء . لا أذكر من هو ولابد أنه كان عاشقا متيما ذلك البيت الذى تنبعث منه كل الأحقاد الماضية وتضطرب فيه كل مخاوف المستقبل .

إن النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين

اننا نصدقه بغير نزاع ومع ذلك فقد وجد من عارضه وسخر منه وهو من أتباع المرأة إذ يقول :

إن النساء رياحين خلقن لنا
وكلنا يشتهى شم الرياحين

يمكن اسناد هذين البيتين الى جعفر بالذات لو كان

شاعراً . ولكن جعفر لم يكن الا عاشقا حيل بينه وبين الحب وثائرا الى اليوم الذى دارت العباسة المفتاح المزيف الذى تحمله فى جميع الأقفال حتى إذا انفتح واحد منها أمامها استطاعت أن تهرب من سجنها .

ان المؤرخين مترددون بشأن الوسائل الجريئة أو الخفية وإن كان يمكن تبريرها وعذرها لشرعيتها التى اضطر الزوجان الأسيران أن يلتجئا إليها ليجتمعا . وانهم لكذلك يسردون الوقائع ولا يعلقون عليها إلا بالتخمينات لا أكثر . وذلك يرجع الى أن الرواة قد أفسدوا التاريخ وغيروا معالمه . لأن الخرافات القائمة على الروايات قد نقلت الينا نبذا متنوعة . بقدر ما هى وهمية وغير معقولة بقدر ماهى محتملة فكلها غير معقولة كما أنها معقولة وكل واحدة منها تخالف الأخرى .

على أنه لم يوجد مؤرخ أو مستشرق ممن ضربوا فى بيداء

التخمينات واحد لم تدفعه مخيلته بعد إذ لم يهتد إلى الحقائق الراهنة الى اقتفاء ظل خفى « لعباسه » عاشقة فكلهم ابتداء من لمرسييه الكاتب الخيالى المتحمس حتى جاتيانى أمير تيانو الذى اشتهر بشدته ودقته فى البحث عن خرافات العرب وتدوينها يعلمون أن ما يستطيع أن يفعله السحرة يمكن أن يفعله القلب بقوة الحب وجرأته . وأن مثل هذا الحب سوف ينتج عنه ذلك الحادث التاريخى أوذاك . وهم لذلك يتعقبون آثار العباسة بذلك الانفعال الذى ينم عنه قلم المؤرخ الطبيعى على الرغم منه . قبل ان يقفوا أو يبعدوا على أسف منهم الخرافات التى تكلل تلك الواقعة الغرامية التى كثرت تفاصيلها ولكنهـــا ظلت مع ذلك غير مقيدة فصارت قابلة للشك والطعن . على أن كل مؤرخ صحيح . بقدر ما يستطيع أن يكون مؤرخا مدققا . على علم بعوامل النفس سواء أكان مغرضا أو غير مغرض أو شاهدا عاديا

يتظاهر بعدم المبـالاة ككليمان هيوارت الذى يقول عن هذه المأساة . يقول البعض أنه يجب البحث عنها فى حادث خيالى يسردونه عن العباسة أخت هارون ومرشدته التى زوجها من جعفر ...

ان هيوارت يلمس فى شيء من الهلع فاتحة المأساة إذ يقول « لقد اتفق على أن الزواج لن يتم » ويؤكد « ان ما أرادوا أن يمنعوا وقوعه قد وقع فعلا » وبعد ذلك يوضح فيقول « وعنى سرا بتربية الطفلين اللذين ولدا » ثم يتمالك إذ يضيف « ومع ذلك فالحادث لايخرج عن كونه رواية لطيفة » ثم يبحث عن سبب « ومن يدرى ربما كانت هذه التهمة تستتر خلف تهمة الزندقة التى وجهت فى تلك المناسبة لاشك فى أن الخطر كان داهما ليضطر الخليفة الى اعدام أحب الكائنات الى قلبه » ثم ينتهى بمناقضة نفسه إذ يقول « ان سبب التهمة من أغمض الأسباب وانه ليحسن

البحث على السبب الأساسى لتلك الفاجعة التى ظلت شهيرة فى بعض العوامل الغرامية »

هذا ما يعد غير واضح وإن كان مع ذلك واضحا للغاية .

ان احدى الروايات الدارجة التى نقلت الينا عن ذلك العصر تقول بأن العباسة قد حلت فى احدى الليالى محل الجارية الجديدة التى كان يحي البرمكى يقدمها كل ليلة الى ابنه . هذا أمر محتمل أو على الأقل تلك هى الرواية التى يسلم بها المستشرق بيرون إذ يقول « لقد تحلت العباسة بالحلى والجواهر كما تفعل الجوارى وجاءت عند أم الوزير وأدخلت على جعفر »

ان رواية تأسرنا ببساطتها المؤثرة وبيرون هذا الذى يمكن أن يسمى عشيق العباسة بعد الموت هو ذلك الرجل الذى يتعقب فى سكون الليل وخلال القاعات الفسيحة

الخـالية والأروقة المتعرجة . خطوات العباسة المضطربة المتئدة . ويمكننا أن نستنشق من وراء عباراته نكهة المسك التى تضوع من ثيابها المستعارة وتسمع قعقعة أساورها ونرى الاحمرار الذى يعلو على جبينهـــا الرقيق المحجب ونشعر بدقات قلبهـا الحزين بل ونرى حركتهـا العصبية الأمارة التى تبعد بها الستر الثقيل لتلقى بنفسها بين أحضان جعفر . وهذا الجعفر الذى يصوره لنا بيرون كان عديم الادراك فاقد الحواس زائغ البصر بفعل الخمر « كان فاقد الشعور بفعل النبيذ فلم يلحظ أن الجارية كانت زوجة وهنا يقذفنا بيرون المؤرخ الموجز بتلك العبارة الصاخبة الفجـائية . بأى حق . ولأجـــل سبب تافه شخصى يهزأ الخليفة من أخته ومن فتاة ميعة الصبا والجمـال . لقد كانت على حق فى أن تخدع الخليفة بل وأن تجازف بحيـاة زوجها ... »

أما عن الخليفة الذى حق للعباسة أن تخدعه فان بيرون لا يبحث ولا يحاول أن يجد أية أسباب مخففة لعظم جرمه. وأما ذلك الزوج الذى جازفت به العباسة فانه لا يتمتع مثلها بكنوز الشفقة التى يحيطها بها المستشرق الشهير.

. · .

ومهما يكن الأمر ففى ليلة من شتاء عام ٨٠٠ حمل أحد العبيد سراً الى الحجاز ابن جعفر والعباسة الشرعى وان لم يعترف به وبعد مضى عام آخر سار ولد آخر فى طريق الحجاز التى سار فيها شقيقه الأكبر قاصدا مكة وهى الملجأ الذى لا تنتهك حرمته.

ومنذ عام ٨٠٠ تبدل موقف جعفر البرمكى تبدلا محسوسا ثم تغير تماما فلسوف لا يحاول أن يتظاهر سواء أكان رعايه أو حرصا بذلك الاحتشام الذى كانت تتطلبه

مكانته كوصيف يغدق عليه الخليفة النعم . وزوج العباسة المختبط وإن كان مغللا ووزير خبيث داهية عظيم النفوذ وإن كان مكروهـا من الشعب سوف لايحاول شيئا من هذا كله ولو بدافع من غريزة البقاء إن لم يكن بعامل الفطنة والذكاء . لقد تجاوزت إرادته كل حد فكل ما كان يصدر منه من الأقوال فى ساعة كدره أو غضبه كان يعد بمثـابة أحـكام رادعـة وقرارات لاتنقض وإذا انتقل سار فى ركابه حرس مؤلف من خمسمائة فارس بثيـابهم المذهبة فيظهر بمظهر أمير . وكان عيشه فى قصره يـكاد يضارع عيش الخليفة نفسه . وإذا كانت عطاءاته تشبه الانعامات الملكية فان كبرياءه وتعاظمه ينمان على أنه كان وصوليا . ولذلك فان غرامه للعباسة قد ساعـد على اثارة طمع كامن ولا يلبث أن يحطم الحواجز المحيطة به ليطغى على كل شىء حوله .

لقد كان جعفر بمثابة ملك دون أن يكونه .

وقد اتهمه مؤرخو ذلك العصر بالخيانة العظمى وهذا افتراض معقول .

ما الذى كان ينقصه لادراك غايته بعد أن ضمن ذريته فنجلاه اللذان كانا يربيان سراً وإن كان هذا السر شائع بين الجموع ولا يجهله إلا هارون نجلاه اللذان أعقبهما من العباسة ابنة الخلفاء على الرغم من جميع المحظورات . لسوف يتخذ منهما حجة يتذرع بها . إذا كان بحاجة الى حجة . أو يزكى بها . إذا كان بحاجة إلى تزكية . المؤامرة التى يحيك خيوطها للثورة على العرش . ان نجليه يؤلفان سلالة ملكية هى سلالته المباشرة ويقربانه من ذلك العرش الذى يود لو يعتليه هو البرمكى بفضل العباسة وبسبب العباسة لأحد نجليه .

ومع ذلك فلن يكون هذا الأمر أول أو آخر ماشهده

التاريخ عن مؤامرة من هذا القبيل أو حرمان أو اغتصاب أعقبه نجاح وذلك النجاح يعزره سبب رئيسى مشروع هو المطالبة بالعرش من فرع نسائى لقرابة غير عصبية من أسرة كفت عن الحكم أو مجرد الاقدام على عمل جرىء والمطالبة بحقوق هى وليدة الصدفة أو ظروف يقودها الحظ الأعمى الذى يفرض شرائعه بالقوة ويقود المطامع العنيدة نحو الأمر الواقع .

ان تاريخ العالم قائم فى الواقع على حوادث الجرأة التى غيرت من معالم الانسانية فى مختلف العصور ولن يكون حادث البرامكة إلا أحد أصداء تلك الحوادث .

ثورة ... كان من السهل اثارة عدة ثورات بمعونة اقاربه البرامكة الذين عينهم حكاما فى جميع أنحاء الامبراطورية حيث كانت الفتن مستمرة متفاوتة . ومن السهل أيضا تنظيم جيوش من المأجورين المتهوسين

وادارتها بحنكة والزحف بها في الوقت الملائم على العاصمة بحجة قمع الفتن أو الثورة أو ازالة العقبات تلك هي الحجة المختارة والحيلة المتبعة في شتى المؤامرات والمكائد في ازالة العوائق والحواجز وإذن فالمقصود هو هارون وهم العباسيون .

على أن العباسيين لم يفعلوا بدورهم خلاف ذلك لاغتصاب العرش من الامويين والفتك بكل من تبقى من الاسرة الساقطة ثم أعمال سيوفهم في جميع أنحاء الامبراطورية لقمع الفتن . وهذا ما يسميه المؤرخ الحريص على احترام نظريات التاريخ « اعادة الأمن الى نصابه في البلاد »

وهكذا فان اعادة الأمن الى نصابه معناه اخضاع الشعوب اليائسة أو التي أوشك أن يدب اليأس فيها ومنعها من كل مطالبة . أما وضع النظام فمعناه في هذه

الحالة وفع جعفر البرمكي على السدة الملكية في الشرق وبذلك يحكم ولداه وهما في نفس الوقت ولدا العباسة سليلة العباسيين بحجة شرعية أي بصفتهما وريثين للخلافة .

وإنه ليس من المستغرب أن يكون جعفر قد فكر في مشروع من هذا القبيل فتكون خيانته العظمى محققة لاشك فيها . فليكن .

على أن التاريخ قد اتهم البرامكة بالزندقة أيضا .

ماذا كانت تمثل الخلافة في نظر البرامكة الذين اعتنقوا الاسلام منذ عهد قريب خضوعهم وذلهم بعد الانكسار . ان شريعة الفاتح الظافر لامعنى لها في نظرهم الا ارغامهم بالقوة على قبول شريعة لم يحسنوا فهمها كما يقول المؤرخون :

كان برمك — الجد الأول — من أسرة تؤدي منذ

أجيال وظيفة « كاهن النار » فى معبد بلخ النوبا هار الذى يدل اسمه أنه معبد بوذى « نافافيهارا » .

كانت شريعة زوروا ستر وطقوسها المعقدة بالسحر وأسرارها لازالت عالقة بألياف هؤلاء الايرانيين ولذلك فان الشريعة الاسلامية البسيطة وتوحيدها وتقشفاتها الصارمة لم تستطع أن تنتزع تماما من أعماق صدورهم حنينهم الى ماضيهم المجيد ولا حبهم للاصنام ولا كآبتهم لسقوط عظمة كسرى .

وهكذا لا يبعد أن البرامكة وبصفة خاصة جعفر كانوا يعقدون الأمل الكاذب على اعادة امبراطورية المازنيين وتجديد شريعة زوروا ستر . لئن صح ذلك لكانوا خطرا على أسرة العباسيين بل وعلى المجتمع الاسلامى . لقد شغلت هذه المسألة الغامضة أكثر من مؤرخ . هل هى حقائق أم خرافات .

لقد زعم المؤرخون . وذلك بعد سقوط تلك الأسرة الشهيرة أنه وجدت فى جميع مساكن البرامكة سراديب خفية لا يطرقهـا غيرهم . وانه كان يوجد هيكل سري تضيء أمامه شعلة مستديمة فى اناء « نواسة » من الذهب يؤدون أمامها سرا طقوسا دينية مجهولة ويقدمون الذبائح التى لا تمت للاسلام بشيء وانه لمن حسن الحظ أنهم لم يتهموهم بالسحر والشعوذة الشيطـانية وأنه ليخيل للانسان انه وسط مجتمع من اعضاء محاكم التفتيش وهم فى عباراتهم الملتوية غير المفهومة . أوكانت تلك الاتهامات من مقتضيات الظروف أم هى عبادات يقصد منها ارهاق أسياد سقطوا أم هل كان البرامكة كلهم يتظاهرون باعتناق الاسلام لغاية فى أنفسهم أم تحايلا .

معذرة كلا ثم كلا . إذ كيف يمكننا أن نصف تعلق محمد بن خالد البرمكى بالشريعة الاسلامية الى حد التقشف

والتصوف . ومحمد هذا هو ابن وزير المنصور والبرمكى الوحيد الذى لم تتناوله المذبحة وكيف يمكننا أن نفسر حج يحيى البرمكى واولاده الى بيت الله الحرام مراراً متكررة ومن بينهم جعفر المتهم الأول بالزندقة ؟ أو كان ذلك منه رياء لكى لا يتهم بالحب ؟ أم كيف نفسر الصلوات التى كان يؤديها جنبا الى جنب مع أمير المؤمنين فى الجوامع العامة بل وفوق جبل عرفات المقدس فى أيام الغفران . حافى الأقدام مكشوفى الرؤوس وعاريى النفوس أمام الخالق الأبدى ؟ أكان ذلك رياء وخبثا ودهاء شنيعا يخفى وراء مظاهر خداعة ما يضمرونه فى خبيئة نفوسهم من الأغراض الفظيعه الوحشية ؟

إذا صح ذلك كان البرامكة كلهم خلال الجيل الذى مر عليهم وهم يتعاقبون فى الوزارة يمثلون بحنكة دورا هاما ويتظاهرون بمظاهر اسلامية خداعة مع بقائهم على

شريعتهم المازنية واتباعهم لشريعة زورواستر وتعاطيهم
السحر لا لغاية إلا العمـل على قلب أسرة كانوا أول من
عزز مكانتها بمجهودهم ليحلوا محلها أسرتهم أم لاسقـاط
شريعة يانعة قوية صـــارمة تغطى ثلثى مساحة الارض
واحلال عقيدة قديمة وشريعة سرية عتيقة فانية نسيهـــا
العالم بأسره إلا هم وذلك خلال مائة عام بدون أية كـبوة
أو هفوة أو إشـارة متناقضة أو خارجة على الدين
الاسلامى فتنم عليهم وبدون أي خطأ أو إهمال أو ارتكاب
هفوة ترفع عن وجوههم القناع يالهم من ممثلين مهـرة
وهكذا انتظروا مائة عام وماذا عساهم قد انتظروا ليقلبوا
أسرة ويدقوا الأجراس إيذانا باعتـــلاء أسرة جديدة
العرش فى حين أنه قد مرت بهم مئات الظروف تمكنهم
من تنفيذ أغراضهم ويكفى أن نذكر ماحدث فى اليـوم
التالى لمقتل الهادى الذى دبرته الخيزران . وحاك حبائله

يحيى البرمكى ليرفع هارون الى العرش إذا كان من أسهل الأمور على يحيى أن يتخلص من الهادى والخيزران وهارون معاً ليستولى بنفسه وأولاده على ذلك العرش الذى طالما عمل ليحتفظ به لهارون .

لقد فاه بتهمة الزندقة بعض المتمردين الذين أضرت بهم الضرائب سواء أكان ذلك منهم عن ضغينة أو عن حاجة فى نفوسهم وصفعتهم الشعوب التى اضطهدوها بحقدها عليهم وكالت لهم الاهانة كما شاءت اهواؤها . لاشك فى أن شراهة البرامكة وظمأهم للمال وقسوتهم كانت مضرب الأمثال على أن تلك الموبقات ليست إلا رذائل شائعة بين الناس وخاصة بقادة الأمم وكبار الموظفين الجشعين والوزراء الذين خلت ضمائرهم فأطلقوا عليها ماشئتم من الاسماء . أخطاء سياسية أوجشع اد[illegible]كن . ولكن ذلك كله لا يدلل بأى حال على

وجود جريمة دينية . وهكذا عبثا يحاول المرء أن يحلل المسألة من جميع وجوهها وأطوارها فانه لايجد مجـــالا ليحكم عليهم بتهمة الزندقة التى ألصقها بهم المؤرخون ويلقيها الخلف عبئاً ثقيلا على كاهلهم . اذن ماذا ؟

اذن أفهمونى جيداً تلك الزندقة لم تظهر وتتضخم ثم تؤيد وتراقب الا عند ماظهر أحـــدهم وهو جعفر فى ظروف خاصة . وسواء أكان ذلك خطأ سخيفـا منه أو انتقاما لأنانيته التى احتقرت فى أعز مالديه وهو فتـوته ورجولته . بمظهر الرجـولة وأخذ يحب ويحب الى حد الشهوة امرأة . هى زوجه التى حملوه على القسم بعـــدم الاقتراب منها بأمر الخليفة لأنها ابنة الخلفاء وأخت الخليفة وما ذلك إلا ارضاء للخليفة . أما الزندقة . الزندقة الصحيحة الوحيدة . اذا كان لابد من البحث عنها . فهى هذه .

أما أن يكون البرامكة قد عملوا على خلع أسيـادهم

ومن ثم انشاء امبراطورية مازنية فهذا غير محتمل وغير معقول

وأما أن يكون البرامكة . المتهمون بالزندقة كانوا يعملون على اعادة شريعة زوروواستر ومحو الاسلام فهذا أيضا لا . . . .

وأما أن يكون جعفر البرمكي وحده بعد أن اختلطت مطامعه وامتزجت باعتبارات غرامية . قد حاول أن يسقط عرش الخليفة هارون ليستولى عليه ربما كان ذلك الغرض الوحيد المعقول الذى يمكن التسليم به . ولماذا

لا تنسوا أن هذا الخليفة كان أحب الرفاق والصديق الحميم لجعفر البرمكي وأن هذا الخليفة سيصبح بقوة الظروف عدواً ويرغب جعفر فى ازالة هذا العائق والتخلص من ذلك الجلاد الذى فرض عليه فرضا وأهانه

فى صميم بدنه .

واذ ذاك لابد لحقده أن يتجسم مخيفا مريعا ويجعل منه خائنا ولا بد لغيرته من أن تبحث عن انتقام ذلك الانتقام الذى تمليه غريزة الرجل المهان فى بدنه والذى لابد له لتنفيذه من مؤامرة ليتسنى له التخلص من هارون كما كان لابد من مذبحة شاملة ليتخلص هارون من جعفر .

أسرة بنى العبـــاس

٤

الأضطرابات في سوريا . ثورة فى خراسان . نتائج هياج فى بغــداد . هرثمة بن عيــان . دور زبيــدة السياسى وتأثيرها . حول لعبة شطرنج . وراثة العرش . ابن زبيده ولى العهـــد .

هل أطلع جعفر العباسة على مشروعاته خلال لحظات إستسلامه لنشوة الغرام ؟ وهل عساها من جانبها قد انحت عليه باللائمة أم تراها قد شجعتها ؟

كل شيء يحمل على الظن — حتى اذا فرضنا أن العباسة قد أدركت أغراض جعفر الآثمة — أن صوت شهوتها الحديثة المتأججة قد حملها « بغير ماشك » على أن تخفى فى خبيئة نفسها كل اعتبارات الصراحة نحو أخيها

ذلك الآخ الذى حرمهـــا من حقوقها الزوجية وبذلك أصبحت تمقته بقدر ما كانت فيما مضى تحبه .

وانكم لتوافقون معى على أن الأمر غير قاصر بالمرة على الخضوع المطلق المقرون بالاحترام نحو قرار تعسفى صادر فى مثل هذه الظروف الشاذة من شخص بعيد كل البعد عن أن يكون قد انتزع من نفسه كل اعتبار مادى وشعور ثوري أو تكون نزعاته الرئيسية وعواطفه البشرية قد تضاءلت بأكملها . خصوصا إذا كان العـــامل الاول فى ذلك هو إمرأة سجينة وأن هذه المرأة فى ميعة الصبا والشباب وأن عليها أن تختار بين الحب لرجـــل محبوب والاخلاص لأخ هو أحب مافى الدنيا اليها وسواء أكان هذا الرجل خليفة فى بغداد منـذ ألف عام أو رجلا عاميا فى عصرنا من سكان باريس أو لندن أو الخرطوم أو نجازاكى . فان اختيارها سيكون واحداً لن

يتغير . وسوف تفضل الرجل المحبوب سواء أكان فظا خشنا أو أبلها أو كان جامعا لهاتين الرذيلتين معا .

وانى أن كنت أخشى أن ابتعد بكم عن سياق الموضوع الا أننى أقول لكم أن هـذا الحادث قد ذكرنى بتفسير عنيف ولكن دقيق قدمه لنا أحد مشاهير المحامين الباريسيين عن اخلاص المرأة :

« من العبس أن نبحث عن يوم يتصف فى الساعة الرابعة عشرة فقد أخذنا كلنا درسا فى هـذا الصدد فلا توجد نساء مخلصات بين العشرين والأربعين فهناك نساء تحب أو لاتحب » (١)

ماهـذا الا رأي كسواه من الآراء ينطبق على موضوع العياسة تمام الانطباق . وهكذا فان تمثيلها دور عدم الاكتراث والنستر اصبح شاقا مؤلما . والآن فانه

(١) المحامى مورو جيافيرى Moro Giafféri

لاتوجد فى العالم كله إمرأة محبة يستعصى عليها أن تختلق شتى الوسائل وان تقف حيال أكذوبة لتنقذ بها من تحبه . أما وإن وجدت فأنها لن تكون إمرأة ولن تكون عاشقة إذ أن خيانتها نحو البعض تعد وفاء وبطولة فى سبيل شخص واحد وربما كان ذلك عذرها الوحيد وثمن فدائها .

أما كيف أدرك الخليفة فى النهاية مايدور فى الخفاء ويحاك فى ظل عرشه وبدون علم منه فان هذا الأمر يعد من الامور التى استعصت على المؤرخين فلم يدركوها او يستطيعوا حلها نظراً للتكتم الشديد الذى التزمه مؤرخو ذاك العصر فى هذا الصدد سواء أكان ذلك تعمداً منهم أم كرها .

ان المؤرخ بيرون Perron يشير بأصبعه الى زبيدة العظيمة ويلقى عليها التهمة . . . .

يقين انه كان يوجد نفور ظاهر بين زبيدة والعباسة وان هذا النفور كان يفصل بينهما . فتلك الغيرة التى كانت تشعر بها نحو امرأة لاتقل مواهبا عنها ولا جاها وترى أن تأثيرها على هارون كان يطغى عليها كثيرا . تلك الغيرة قد ازدادت مع الوقت . وإن هى إلا أمر طبيعى . فاذا سلمنا بأن الطبيعة المتكبرة المتعطشة للسيادة التى تتحلى بها امرأة كزبيدةلايمكن أن ترضخ او تقبل او تقوم بدور ثانوى او تتوارى تماما خصوصا اذا كان مجرى الحوادث المحفوف بالمخاطر يتطور أمام انظارها الثاقبة تطوراً مقلقا مخيفافان ذلك لايدلل اطلاقا على انها كانت تضمر الايقاع بفئة معارضة أومعادية لها . انه لمن الصعب حقا اتهام زبيدة بالدس أو القسوة .

وعلى نقيض ذلك ، كيف يمكن ان يعزى الى زبيدة . ابان هذه الحوادث الحاسمة ان تقف موقف المتغاضية او

ان يكون حب الغير متأصلا من نفسها الى حد كبير إذ ان مثل هذا الموقف يتنافى تماما مع ما إشتهرت به من الشعور السياسى الحساس كما لا ينطبق على ما امتازت به من صفاء ذهن عجيب .

ان ما اتصفت به زبيدة من رقة الشعور وطيبة القلب وكرم المحتد لم تؤثر فيها الى حد ان تفقدها كل ميزة بسيكولوجيه . وانه لايمكن للمرء إلا أن يشعر بخصومة المرأتين الغريزية وتنافر هاتين القوتين المختلفتين . انهما لأشبه بحجر الزناد المشتعل إذا قرع صلب المنطق البارد ولم تخفف الملابسات الداخلية من حدة تلك الخصومة بل على العكس فان شعور الاستنكار الذى نشأ عن الحوادث المتعاقبة قد أوقفت هاتين القوتين وجها لوجه فى ميدان يرفرف فوقه ملك الصمت الرهيب المشئوم .

كانت زبيدة أميرة جليلة كاملة محافظة على جميع تقاليد

المجد كما كانت تغار على امتيازات اسرتها . وهى فوق كل شيء مسلمة أصيلة كما كانت طيبة القلب رحيمة لم تزعزعها الشهوات وتربطها بهارون عاطفة مودة هادئة متينة ان لم تربطها به رابطة الحب أو اذا شئت فهى رابطة الواجب والتضامن والشعور بالمسئوليه السياسية. وقد أدركت زبيدة عواقب مأساة الحب التى تمثل أمامها بجميع اطوارها وتطوراتها اذ شعرت بمطامع البرمكى المتحفزة وما ترمى اليه من دك صروح عرشها . فهل لم يكن من واجبها بعد ذلك أن تعمل وتضرب .

كانت زبيدة أما لولد وان لم يكن أكبر أنجال الخليفة ولا المفضل عنده . إلا انها كانت منذ ولادته تعتبره وريثا وحيدا لأسرة بنى العباس سواء من ناحية هارون أو من ناحيتها ومن ثم وريثا بغير منازع للامبراطورية والعرش ولتقاليد العباسيين . لم تكن زبيدة سليلة العباسيين تخشى

شيئا على ابنهـا أو عليها من جانب أبناء هارون الآخرين فكلهم أبناء راقصة أو أمه [١] وان كانوا من دم عبـاسي

(١) على أساس الشريعة الاسلامية يعتبر شرعيا ويرث بمساواة كل طفل يولد من زواج شرعى . كل طفل أو طفلة تولد من أمة شرعية مسلمة أو غـير مسلمة أو من سبية حرب . (ويعد غـير شرعى أى فضل كل طفل يولد من اجتماع غـير شرعى لشخصين حربين أو كل طفل يولد من أمة بعد تحريرها) وجميع القوانين متشابهة للاولاد الذين يرزقون لمسلم من جميع سبيات الحرب مهما كانت عقائدهن الدينية ولا يمكن ا ناءهن بالعدول عن ايمانهن أو اكراههن على اعتناق الدين الاسلامى أن أولادهن فقط يعتبرون شرعا من مواليد المسلمين .مثـال ذلك الحوادث المجهولة أو المعلومة لبعض سبيات الحرب الشهيرات اللائى يأتى على ذكرهن تاريخ الشرق كمسألة ماريا أو بيلتزا الشريفة البيزنطية شقيقة الامبراطور نكفور فوكاس الثانى *Nicéphore Phocas* التى سباها أبو الحسن بن حمدان سيف الدولة أمير حلب فى القرن العاشر حادث شهير تسبب فى ايقاد نار الحرب عشر سنوات وقد ذكره الشاعران المتنبى وأبو الفراس والمؤرخان البيزنطيان ليون دياكروسدريفوس وقد قص سيف الدولة بنفسه قصته بأبيات شعرية ظلت خالدة وقد بقيت الاميرة البيزنطية نصرانية وأعقبت ابنة من ابى الحسن سيف الدولة وهناك حادث آخر هو حادث الاميرة «ايدا» النمساوية فى القرن الحادى عشر من حوادث الحرب الصليبية الثانية فقد سباها أتابك الموصل وأنجبت عمـاد الدين الزنجى الشهير الذى كان ابن خالة الدوق هنرى دى ساكس . ولم ينكر الأخير كما لم ينكر عماد الدين هذه القرابة الجرمانية التى طالما علق عليها « ا كشارد دوراخ *Ekkard D'urach* » و « انييس دى بافيير *Agnès* =

أما أبناء العباسة والبرمكي ذلك البرمكي المازوى . ذلك البرمكي الزنديق الذى كانت تكرهه وتمقته والذى

= De Bavière » فى مؤلفاتها . شلومبرجر . قصص الحروب الصليبية جزء ٢ وقد ماتت ايدا النمساوية كاثوليكية .

وقد كان لأسبانيا عدد وافر من السبيات النصرانيات أشهرهن سبية أبي الحسن الزجرى أمير اشبيلية « ايزابل دى هارو التى أصبحت ثريا » أما سلاطين آل عثمان فان دماءهم الممتزجة تدل على وجود سلالة بعيدة من الأموات أو السبيات الأجنبيات والمسيحيات من بولونيا وسربيات ويونانيات وايطاليات وهنغاريات . على أن أدعاهن الى الدهشة كانت « ايميه دى باك دى لاريفيه Aimee du Bac de la Riveray » المولودة فى جزيرة المارتينيك وابنة خال جوزفين باشيرلاباجرى زوجة نابليون الاول . فعند مابلغت ايميه الثامنة عشرة من عمرها قصدت ديرا فى مدينة « نانت » فى فرنسا فأسرها بعض القرصان التونسيين . فأرسلها باى تونس كهدية الى السلطان عبد الحميد الأول فرزقت منه ابنا هو السلطان محمود الثانى واصبحت الآنسة دى لاريفريه السلطانة نشأه ديل وقد تحققت جوزفين من شخصيتها كما عرفها الماريشال سبستيانى سفير فرنسا لدى الباب العالى . وقد كان للسلطانة الفرنسية تأثير عظيم على عبد الحميد الأول وبعده على ابنها محمود الثاني . وقد ماتت مسيحية . ولعبت سبيات الحرب الأموات المسيحيات دورا خفيا ولكنه دور كبير فى تاريخ الشرق راجع تاريخ تركيا للامارتين وفون هامار Von Hammer » وغرائب التاريخ » للدكتور كابانيس وجورج ينج المؤرخ الانجليزى والمؤرخ المصري المشهور عزيز بك خانكى فى « نفحات تاريخيه »

تساعده العباسة فانه كان يستطيع أن يستخدم جميع موارد
الامبراطورية وأسرارها ليؤسس أسرته ولاشك فى أن
دمه الغريب اذا اعتلى عرش العرب هو الخطر الصحيح
الوحيد المستمر الذى يهدد هارون الخليفة الحالى وابنها
خليفة الغد .

على أن تلك الفكرة ايضا كانت فكرة فئة من كبار
العرب كانوا يشاطرون زبيدة الرأى ويلتفون حولها
ويعضدونها بمالهم من جاه ومال وعلى رأسهم هرثمة
بن أعين .

فهل هو هرثمة بن عيان الذى أوقف الخليفة على الحاله
بفضل ماله من مكانة خاصة لديه أم هى زبيدة وحدها ؟
تلك نظرية تدعو الى الحيرة .

فمن من المؤرخين يمكنه أن يتناول تلك الحبة القديمة
ويغربلها وينزع عنها قشورها او أن يرمى الحثالة بين

الرمم ويرجع الى المراجع التاريخية الماضية فيفرزها فرزا دقيقاً ويميز بين ما يوجد فيها من موادكاذبة أو صحيحة ؟

ففي ابان عام ٨٠١ شبت نيران الثورة في مرو وقمعت بفضل هرثمة الذى انتزعت منه عقب ذلك قيادة الجيوش لأسباب ظلت غامضة للغاية . ثم أرسل هرثمة ذلك الجندي الباسل الذى خاض حروب افريقيا وأخمد ثورات البرابرة ، الى سوريا على الرغم من أنه لم يكن من أصدقاء البرامكة ولا يقل عنهم نفوذا . ومن الغريب انه لم يمض على وصوله الى سوريا الخاضعة الساكنة وقت طويل حتى اندلعت نيران الثورات من جديد بين الفينة والفينة في جميع أنحائها حتى ليخال انها أثيرت خصيصا لينشغل بها هرثمة وبتحول تيار اهتمامه عن العراق .

وفى غضون ذلك هبت ثورات اخرى فى مدينة طوس ثم فى همذان وامتدت ألسنتها الى الحيرة وليس فى

ذلك ما يدعو الى الدهشة فقد كانت الثـــورات فى ذلك العهد شائعة شيوع العملة المتداولة .

أجل ولكن الفضل البرمكى [1] حاكم بلاد العجم الذى أنيطت به مهمة قمع الثورات الجديدة . لم يحسن اتخاذ التدابير الناجعة أو أنه لم يتخذ أى اجراء فامتدت الثورات وانتشرت فى انحاء خراسان بسرعة البرق وكانت خراسان دائما ابدا نقطة الضعف فى امبراطورية العباسيين ومحور سياسة البرامكة أو بتعبير آخر كانت أشبه بقدر الساحرة التى تلتهب النار تحتها ويزكيها الشيطان من وقت لآخر بنفثاته .

وإذن : لماذا أبعد هرثمة وهو الجنـــدى الوحيد الأمين المقدام الذى يمكن أن يعتمد عليه العباسيون .

---

(١) فضل البرمكى شقيق جعفر الأكبر وقـــد كان فى الوقت نفسه أخا هارون الرشيد فى الرضاع .

بحجة اخماد فتن سوريا فى حين أن هناك ثورة ، وثورة خطيرة يتسع نطاقها فى خراسان وتمتد وتلتهب لتزحف حتى أبواب بغداد .

أهى خطة دبرها البرامكة أم هى من المصادفات العادية البسيطة : مصادفة ؟ فليكن . على أنها مصادفة غريبة تلك التى يسبقها أبعاد هرثمة الى سوريا فى وقت حرج دقيق . بينما وميض الشقاق ونيرانه تتأجج فى كل مكان وفى الوقت الذى كان يعمل فيه الفضل البرمكى على اخماد نيران الثورات فى مكان لايقاد نيران غيرها فى مكان آخر كأنه فى انتظار أمر طال أمد وروده .

أمر صريح يرد اليه من جعفر بالذات باشعال النار فى كل مكان ليسير الى العاصمة ويلقى الشعلة فى وسط البارود .

تلك افتراضات عادية فكر فيها غيرنا وكثير غيرنا

من قبل . لا شيء أكثر من افتراض بالطبع ليتسنى به التوازن بين سلسلة من الحوادث الفجائية الغريبة والوقائع المتصلة ببعضها اتصالا تاما لتزيد « تهمة الخيانة العظمى » المعزوة الى جعفر تعقيداً . المعزوة ؟ يقينا إذ أن المؤرخين لاينيرون لنا الطريق كثيرا بمصابيحهم الضئيلة ما داموا يؤكدون خيانة جعفر دون أن يدللوا عليها أو يقدموا عنها أسبابا واقعية ولا أدلة مفروضة أو حقيقية . لاشيء . لاشيء من ذلك مطلقا وهكذا تقف جميع الاستنتاجات عند حد الافتراضات بدون أي برهان أو دليل أو قل مايكفى من الأدلة ليجعل من البرمكى الجميل فريسة للجلاد .

ولقد عصر المؤرخون رؤوسهم عساهم أن يهتدوا الى برهان ملموس فلم تصطدم جباههم الا فى زاوية الافتراضات المدببة الحادة ثم حذوا حذو قضاة التحقيق

الذين اذا اصطدموا بملف تعددت فيه القرائن دون أن يكون بينها أدلة قاطعة ، حفظوا القضية . وهؤلاء أيضاً حفظوا موضوع خيانة جعفر التى دعاها المؤرخ بيرون «كاذبة» ضمن حوادث التاريخ غير المحدودة أو بعبارة أصح التى لا يمكن تفسيرها .

وانى لأخشى أن نحطم نحن أيضا رؤوسنا — على غرارهم — ضد التخمينات . فنسائل نفوسنا أولا عما اذا كانت ثورة بغداد عام ٨٠٢ تدخل ضمن الخطة التى وضعها البرامكة ليتخذوها ذريعة أو مقدمة ليحدثوا صدمة نهائية يقوضون بها صرح خلافة العباسيين من أسسه . ثم اذا كانت زبيدة قد أوقفت الخليفة . فى تلك اللحظة . على مايساورها من المخاوف . لو قدر أن تكون هى التى أطلعته على الحقائق التى كان يجهلها وحده . ولماذا ؟

لأن عطف هارون على جعفر وثقة هارون العمياء بالبرامكة قد بدأت تفتر وتتضاءل منذ صيف عام ٨٠٢ تلك حقيقة ثابتة مؤيدة بالبراهين لا افتراض ولا تخمين .

ففي عام ٨٠٢ أرهق كاهل سكان بغداد بضرائب جديدة ظالمة فثاروا وزأر الشعب وصخب على البرامكة وعلى حكمهم الذى كان يستنزف دماءهم . وحطم أحياء المدينة المتطرفة وأشعل النار فيها .

فبدأ يحي البرمكي بالقاء القبض على زعماء تلك الحركة الأبرياء وأعمل فيهم السوط حتى لفظوا النفس الأخير . ثم تلاه جعفر وأمر المأجورين من الاكراد بأن يحملوا على الشعب الذى كان يسعى نحو قصر هارون ليطلب انصافه من البرامكة .

وبدأت المعركة وحمى وطيسها بين مأجوري الحرس والشعب المغبون . وكان المأجورون يتعقبون الجماهير

ويعملون السيف فى أجسام الهاربين ثم خيم الصمت على صفوف الثائرين بعد أن استولى عليهم الذعر وأريقت دماؤهم ...

ففى ذات مساء. مساء صيف جميل. كانت الشمس قد القت اشعتها الاخيرة على السماء الصافية إذ كان ملاك الموت يبتسم ابتسامته الرهيبة ويمزج ضحكته المخيفة بدماء ذلك الغسق المحزن المخيف. كانت الجثث مبعثرة على وجه الأرض حتى تحت أسوار قصر الخلفاء. وقفل جعفر عائدا الى القصر وهو على صهوة جواده وسيفه مسلول بيده. فكان يسير ظافرا شامخ الأنف رافع الرأس فوق تلك الأجسام الممددة بين رجال الحرس. بعد أن انتهى من تلك المذبحة الرهيبة ورفع عينيه. هاتان العينان اللتان تلمعان ببريق المطامع الجديدة — شاخصا الى نوافذ القصر المحكمة. عسى أن تقعا على من طبعت صورتها فى

قلبه . صورة العباسة التى لاتبارح مخيلته .

وأرخى الليل ، ليل الشرق ، سدوله على ذلك المشهد المخيف المرعب . وروى أديم الأرض ظمأه من دماء أبنائه وكتم أنفاسه كما يفعل الفهد الذى يبحث عن فريسته وجالت نظراته حوله ووقعت على منظر عاره يتلألأ فى ظلمة الليل البهيم تحت ضوء الكواكب النائية الباردة .

وسرت رعشة الذعر بين أنحاء بغداد المنهكة . وتملك الخوف بغداد من سماع أنين الجرحى الذين لم تجهز عليهم أيدى المأجورين ولم تطأ أجسامهم سنابك الخيل وظلوا يعانون سكرات موت بطىء .

وأرخى الليل سدوله على المدينة الضاحكة نخفت الأصوات ولم يعد يسمع غير نحيب النساء .

وكانت بعضهن يتنقلن بين الأشلاء والذعر باد على وجوههن غير آبهات لأسواط الجند ولا تحذير العسس

ويبكين على تلك الجثث المتقلصة عسى أن يجدن بريقا من الحيـــاة فى تلك الأعين المفتوحة وقد انطفأ نورها أو يسمعن نفثة . وإن كانت خافتة تـتردد فى تلك الصدور التى كانت لاتزال تختلج الى أن تدركها يد الموت البـاردة فتهدأ هدوءها الأخير .....

وسارت غيرهن شاردات الانظار وقد جن جنونهن وأخذن يرددن صـلوات غـــير مفهومة كأنهن فى انتظار حدث عجيب خارق للطبيعة وهو حدث لن يقع . ووقفت غـيرهن واجمـات وأخـذت أيديهن المضطربة تبحث بين أشلاء القتلى الدامية عن أحلامهن التى فتكوا بها وهكذا ظلت مواكب النساء تروح وتغدو الليل بطوله .

وأرخى الليل سدوله على قصر الخلفـــاء حيث ظل الجند المأجورون ساهرين شاكى السلاح . وكانت أقدام الحرس تدب على الاعتاب فى الداخل وصوتهم يردد نداءهم

المعهود : وحد وحد الله . فيتجاوب صداه فى جميع الأنحاء .

ووصلت رائحة الدم الى سباع افريقيا وهى فى أقفاصها البرونزية بداخل الحدائق البديعة الغناء. فاشرأبت أعناقها وبدأت تزأر زئيرا متواصـــلا وحشيا . أما فى داخل القصر الساحر فكانت تجلس إمرأة فى عزلة الى نفسها ...

وكانت اصوات المدينة الجريحة المتألمة تصل اليهـا مضطربة وتختلط بأصـــوات الاماء اللاتى كن يرتلن فى احدى الحجرات النائية بعض آيات من الكتاب الكريم كانت هناك امرأة فى عزلة الى نفسها .... لا أنيس لهـا ولا سمير غير أفكارها الشاردة . فيما كانت تفكر يا ترى ؟. فهل بدت على تلك الجدران المـائلة أمامها بعض الرؤى المخيفة فأثلجتها من مكانها .

ماذا عساها تعرف من حياة الجماهير وآمالهم وبؤسهم وآلامهم ؟ وهى التى يهب الى خدمتهـا عالم بأسره فى قصر

تكتنفه الحدائق الغناء وتحيط به الأسوار المذهبة والأبواب الموصدة ويكتنفها الخدم والحشم والمماليك والحرس والأغوات والعبيد والأرقاء فيفصلون بينها وبين العالم الخارجى .

ان من يراها فى مثل هذا الجمود لايفتر ثغرها عن ابتسامة أو زفرة ليظن انها غريبة عن كل شعور وحساسية . ومع ذلك فقد كانت تعيش عيشة خاصة يجهلها الجميع وخلعت عليها العزلة رداء من الحساسية لاتدركه غير النفوس الكبار ولاتصل اليه الا بعد أعوام من التأمل والتفكير .

كانت لاتجهل شيئاً مما يدور حولها وكانت ذاكرتها حادة مدهشة . فكانت لاتجهل مايتضمنه تقرير سياسى أو قرار سرى أو مسعى أو دسيسة أو تاريخ أو رقم فقد كان قلم مخابراتها منظما بما لايقل عن نظام البرامكة وأداته

تدور بأحكام متقن دقيق .

لقد فهمت مايصبو اليه الشعب وأدركت آلامه . وفى تلك الليلة كان صوت الشعب يتصاعد اليها من مدى بعيد كأنه يستغيث استغاثة اليائس وينادى زبيدة .... فأرسلت زبيدة معتوقيها الى الطرقات حيث يتضور الشعب بين مخالب الموت ليواسوا الجرحى ويضمدوا جراحهم ويواروا الموتى التراب وبعثت بعبيدها الى بيوت الأيتام ومساكن الأرامل البائسات ليوزعوا عليهم الصدقات ويعزوهم بأرق الالفاظ والعبارات .

وفى تلك الليلة نذرت بأن تقدم بائنة لجميع الفتيات اللائى سقط آباؤهن تحت سيف البرامكة ، وأن تشيد الدور التى احترقت فى الاحياء الفقيرة وتأوي من خربت دورهم أو تصدعت . وفى تلك الليلة أمرت بأن تفتح أبواب مخازنها على مصراعيها ويوزع مافيها من

قمح وحنطة . وعند الفجر سوف تغادر القصر قوافـــل تحمل الاطعمة والملابس لتوزيعهـــا على المعوزين فى الأحياء المنكوبة وعنـــد الفجر أيضا سوف تقف هذه القوافل عند جميع الابواب .

وجمدت نظرات زبيدة من غير عمد عنـد تلك الآية الحكيمة المنقوشة بالذهب فى أعلى باب خدرها « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » ثم انتقلت مـع الانوار الى تلك الآية الثانية التى كانت تسطع كالنـار « وان الله شديد العقاب » فكانت بمثابة نذير وانذار . أما فى الخـــارج فكانت أصوات العسس لاتزال تحمل اليها ذلك النـــداء « وحد . وحد الله » فكان لهذا النـداء الطبيعى فى ذلك المساء معنى آخر .

وبغتة نهضت زبيدة الامـــيرة المسلمة . كانت رافعة الرأس شاحبة الجبين ولكنها كانت قوية العزيمة ونادت

عبدا نوبيا [1] ضخم الجسم فوقف أمامها حاسر الرأس مشبوك الذراعين وأمرته قائلة . إذهب بلغ مولاك أمير المؤمنين بأننا سنأتى لمقابلته . ثم سارت بخطواتها المتزنة ومرت بقاعات فسيحة وهى تبعد عنهـــا باشارة عصبية الأماء اللائى برزن لملاقاتها . ومرت بالقاعات العديدة التى خلت فى ذلك المساء من كل انسان وغابت عنها نغمات القيثار ودف الراقصات . مرت بتلك القاعات الفاخرة التى هجرتها الأصوات وخلت إلا من انين المياه المتساقطة من النافورات .وسارت بين عمد الرخام والمرمر القائم على جانبيها كأنها حرس يتأهب لتأدية التحيـــة برفع السلاح .

وكانت ستائر الابواب الثقيلة النفيسة ترتفع أمامها ثم تسدل خلفها فتحدث حفيفا ناعما وكذلك الابواب

(١) مسرور أغا هارون الرشيد الرهيب المشهور .

النحاسية الثقيلة الاثرية كانت تفتح أمامها ببطء كأنها شباك ثم تغلق فتحدث صوتا رنانا . وكان ضوء المشاعل ينعكس على ظل الأميرة فيزيد فى حجمه حتى لقد أصبح كالشبح الذى يمثل الفضاء وهو ينساب بهدوء فى محازاة جدران بيت بنى العباس .

وكان الخليفة واقفا شاخصا الى ذلك الظـــل الذى يقترب منه فى هالة من النور : الملكة .

ان من النساء من لايمكن . بأى حال من الاحوال . وضعهن بين ذراعى رجل .أما هذه فهى من بين اللائى لايمكن وضعهن الا على عرش ينحنى الرجال أمامه فماذا قالت له فى تلك الخلوة وعـــلام أطلعته فى تلك الساعة المؤلمة خلال ذلك الحـوار الذى دار بينهما بغير ما شاهد عليهما والذى سيترتب عليه اتخاذ قرارات حاسمة لن يغيب أهميتها على أى مؤرخ دون أن يستطيع أن يحدد

الدور الصحيح الذى لعبته زبيدة

ان صدى التأنيب اذا كان هناك تأنيب أو الارشادات اذا كانت قد ابديت ، أو المخاوف اذا كانت قد اثيرت أو القرارات الحاسمة اذا كانت قد اتخذت . أن صدى ذلك كله لن يصل الى الخارج فقد وئدخلف جدران الرخام السميكة ووراء تلك الابواب النحاسية والستائر المسدلة . ان هى الا عبارات شاردة واصداء تائهة تحت تلك القباب المنقوشة والسقوف المذهبة .

ماذا قالت له ونمت اليه مما يزعج الخاطر ويثير الشكوك فلن ينجع فيه علاج هل أشارت له الى غرام العباسة أو مطامع جعفر وخياناته أو مولد ولديهما . والدسائس السياسية أم مخاوفها على سلامة الاسرة وأسباب الثورات والخطر المحدق بالدولة بسبب مطامع خدمه المتزايدة ليس للامراء أصدقاء وليس لهم غير نمامين

أو خدام لحظة .

لقد مزق منطق زبيدة السليم قناع الاوهـام وأزال كل أثر للغـــرور الكاذب الذى تملك هارون بشجاعة لاتقل عن شجاعة أولئك الذين يدافعون عن العقل باسم العقل ليرشدوا الضالين الى صحة بعض الحقـــائق المخيفة ويهدوهم بلسان الحق الى ماوراء احلامهم من المخاوف .

ان الانقلاب الذى احدثته العبارات التى أحسنت هذه المرأة المتكبرة اختيارها لتضرب بها أوتار ذلك الرجل الحقود . وان كان مترددا . أو لتثير بها كبرياءه . تلك العبارات كانت حازمة قاطعة . ما أفظع هذا الصحو الذى اعقب ذلك الحلم الذى كانت تعيش فيـه تلك الشخصية المزدوجة التى طالما عبثت ولهت . لقـد انهـار ذلك كله وأصبح هباء منثورا . وتلاشت الافـــراح والمسرات أمام ثائرة ذلك الحقد فهو شنيـع بشع بقـدر

ما كانت الصداقة جميلة . ماذا قالت له ؟ ماذا قالت له فى تلك الساعة التى تنهار فيها العروش مما جعل جبين الرجل يتقطب وتظهر عليه الأخاديد وتحمل الكآبة الى تلك الشفاه الطيبة الشهوانية فتبدو كأنها جروح لاتلبث أن تقطر دما .

وما أن لاحت بوادر الفجر حتى غادر القصر رسول من قبل الخليفة يحمل رسالة سرية وأخذ ينهب الأرض على ظهر جواده ميمما وجهه شطر الشام . تلك الرسالة هى بغير شك لاستدعاء هرثمة .

...

من المحتمل أن تكون زبيدة قد أوقفت هارون على الاخطار المحدقة به . تلك الاخطار التى كانت تهدد الامبراطورية العربية والعباسيين والسلم فى الشرق فلا يمكن والحالة هذه أن يعزى إلى زبيدة التحريض على

ارتكاب جريمة . فكل مايمكن عزوه اليها هو مجرد تحذير هارون لصيانة عرشه وأسرته . وهى لم تفعـــل ذلك إلا بدافع الخوف على مستقبل ابنها محمد . ذلك الطفل الجميـل الذى كانت تقوده من يده بمهارة فائقة نحو العرش .

وعلى نقيض ذلك ليس هنـاك أدنى شك فى أن الخليفة وحده هو الذى وجـد الوسائل الفعالة لابعـاد تلك الاخـــطار . تلك الاخطار التى نشأت من ذلك التحالف الثلاثى الذي ابتدعه بنفسه . لا لشىء إلا ليلهو فأثرت نتائجه التى سببها طيشه فى مجرى حياته وحيـــاة غيره كما اثرت ايضا فى سياسة بلاده .

اننا نعلم أن العباسيين من خليفة الى خليفة . قد ورثوا ذلك الخضوع التام لوزرائهم البرامكة . ونعلم أن المهدى والد هارون . قد تخبط وحاول عبثا أن يتخلص من سيطرتهم على الدولة .

لقد ساعد القدر الخيزران على تعزيز سلطتهم ومكانتهم وبعد موت الخليفة المهدى الغامض فى الوقت الذى ربما اختاره ليخلع عنه رداء الخضوع من سخريات التاريخ ومخبآته .

اننا نعلم أن هارون مدين لأمه وللبرامكة بوصوله الى عرش الشرق . وأنه مدين لهم بكثير . مدين لهم بأحب صلات المودة والصداقة إلى قلبه وبأكبر خيبة أمل شعر بها فى حياته كما أنه مدين لهم بذل الوصاية التى يحاول أن يفسرها المؤرخ بقدر ما يستطيع ادراكه لها ويعللها بأن شعور الاستقلال الذى شعر به هارون نحو الأسرة القوية التى كانت تسيطر على الامبراطورية بأسرها . ذلك الشعور هو الذى دفعه الى اتخاذ تلك القرارات الشديدة ثم خوفه من ضياع عرشه وكذلك الغضب ثم الغيرة ان جميع هذه المشاعر لهى من العوامل القوية فى قرار هارون الفجائى

غير المنتظر وهو قرار يتحمل هو وحده جميع المسئوليات التى نتجت عنه ويقف منهـــا وحده أمام حكم التاريخ ويتحمل وحده وزر الجريمة .

أما مرــ الوجهة السياسية فان زوال البرامكة كان تحريرا للأمير وللدولة وبوجه خاص للشعب الذى كانوا يضطهدونه . فمقتل جعفر لا يعد من الأخطاء السياسية بل اقتضته مصلحة الدولة .

ان الأسباب السياسية تغتفر الجرائم من هـذا النوع فى حين أن الشرائع الأخلاقية البشرية والضمير تسميه جـــرما ...

فى ذلك العهد . وفى نهاية الصيف أي بعد ثورة بغداد عام ٨٠٢ توالت الحوادث الحاسمة بسرعة .

فقد حدث ذات مساء فى قصر الانبـار أرــ جلس الخليفة وجعفر وجهـا لوجه يلعبـان الشطرنج . ووقفت

بين الاثنين . العباسة تشاهد اللعب وجفونها مسبلة ناعسة وعلى شفتيها ابتسامة ناعمة .

كانت أصابع هارون تنقل الأحجار بحركات متزنة ويد جعفر العاشقة تداعب مترددة حجر الوزير المصنوع من البللور . وكانت أنامل هارون الطويلة القاسية تدير حركات حجارته بطريقة يستطيع بها محاصرة حجارة جعفر وشل حركة لعبه ... وكانت يد جعفر العصبية المترددة تداعب بيأس حجر وزيره الضائع . وكان وقع الأحجار المتنقلة على لوحة الشطرنج يحدث صوتا أشبه بصوت السيوف إذا التحمت ببعضها فى وسط سكون لم يحاول أحد من اللاعبين أن يعكر صفوه . وكان اللاعبان يحدقان طويلا فى لوحة الشطرنج فيقيس المغلوب مدى استحكاماته المكشوفة ويتردد فى نقل حجارته بينما الغالب كان ينتظر بغير ماعجلة ويرقب بتريث الحركة

الأخيرة لينقض على فريسته كالباشق ! . .

وفجأة أتت العباسة بحركة تزعزعت لها لوحة الشطرنج وسقطت عليهـــا الحجارة ، فقالت فى صوت المعتذرة « عذراً يامولاي »

وبغتة رأى هارون فى العباسة — وقد انكشفت لأول مرة — امرأة لم يكن يعرفهـا من قبل . فتلك المرأة الماثلة أمامه لامعة العينين ليست الأميرة العباسة وليست ابنة الخلفاء وليست اخته العبـاسة انمـا هى زوجة جعفر البرمكى وقد وقفت تنظر الى ابن الخيزران . وتمتم القزم بصوته المخيف « لمن شرف اللعب يامالك الزمان ؟ » فانتزع هارون خاتمه الزمرد الكبير الذى كان يحلى به اصبعه وقدمه الى العبـــاسة وهو يبتسم ابتسامة خفية « لأختى » . . .

ودفعت العباسة غريزة خفية الى نقل ولديها من مكة

الى اليمن . فهل كان ذلك شعورا بالخوف أم على سبيل الحرص . إنه على كل حال حرص متأخر اذ قام هارون بأبحاث سرية واكتشف مخبأ ولدى العباسة . لقد عثر على الأدلة وهى ادلة لا مجال لتكذيبها . فهل هناك خير دليل من ولدى البرمكى لقد وضع يده عليهما فأزالهما من عالم الوجود.

ثم اننا نجد هرثمة وقد عاد من سوريا الى بغداد ثم عين قائدا عاما للجيوش ورجال الحرس المأجورين ، نخفت حركة الثورات والاضطرابات .

اما هارون فقد قام بتمثيل دوره مع العباسة ومع جعفر بحنكة ودهاء . فلم يغير من معاملته لهما شيئا . فقد كانت معاملته لهذين الزوجين بالعكس أرق وأحب مما كانت عليه. فازداد عطفه عليهما ورقت مخاطبته وأحاديثه معهما . واستؤنفت جولاتهم ونزهاتهم فى بغداد بأحسن واحب مما كانت عليه بعد أن انقطعت ردحا من الزمن بسبب

الاضطرابات ولا سيما بعد أن عادت الى بغداد بهجتها ورونقها بعد هدوء العاصفة . وكانت جولاتهم تطول الى ساعات متأخرة من الليل تحت ضوء الكواكب الساطعة وبين الرياض الزاهرة على ضفاف النهر الذى كانت مياهه تنساب هادئة صافية بين البساتين الغناء .

وعاد المهرجون الى سابق عادتهم فكانوا يثيرون الضحك بترهاتهم . وكانت نكات أبى النواس تتطاير كسهام من الشرر وتنتقل بين الجموع فتثير قهقهة هارون الذى كان يخفى مقاصده وأغراضه بحنكة ومهارة كما يفعل الدجالون الهنود عندما يعرضون ألاعيبهم على الانظار بخفة ورشاقة .

وارتفع صوت اسحق العذب بأناشيده الغرامية فاهتزت له أنحاء القصر وأخذ السقاة من ابناء اليونان يملأون الكؤوس الذهبية بأفخر وألذ أنواع الراح .

وسافر الخليفة فجـــأة الى مكة وفى صحبته جعفر . كان ذلك فى نهاية عام ٨٠٢ ولسوف تتعاقب الحوادث على عجـــل .

فقد أصدر الخليفة قرارا رسميـا نشر فى مكة وعين فيه محمدا ابن زبيدة وليـا لعهده[١] فكان ذلك حرمان ابنه البكر عبدالله[٢] من حقوقه فى وراثة العرش وارغامه على احترام سلطة أخيه وهو أصغر منه سنا . ولقد كانـــ فى الامكان أن يعتلى عبدالله العرش بعد هارون لو لم يكن ابن الأمة الخزرية[٣] وهذا ما جعله يفضل عليه ابن زبيدة الاميرة العباسة العربية والزوجة الشرعية . ولا نستطيع هنا أن ننكر توسط زبيدة ونفوذها مع نفوذ الحزب العربى الذى كان يتزعمه هرثمة ابن أعين وسهل بن ربيع .

وأصدر الخليفة مرسوما ثانيـــا عين فيه محمدا . ولى

(١) الخليفة الأمين (٢) الخليفة المأمون الشهير (٣) كان الشراكسة يدعون خازار

العهـد . حاكما على العراق وسوريا وعبدالله بن الخـزرية حاكما على الولايات الشرقية وازربيجان وخراسان .

وعند ما آب هارون من تلك الرحلة الفجائية فى أوائل ايام عام ٨٠٣ استقر فى الانبـار على ضفاف نهر الفرات . وكان منذ بضعة أيام عابس الوجه شاحب اللون مما أدهش حاشيته . ولاحظ الطبيب ابن جبريل أن الخليفة كان مشغول البال شارد الفكر فكان لايشرب ولايأكل .

وفى يوم الجمعة الثانى قبل نهاية محرم (٢٦ يـــناير سنة ٨٠٣) عاد هـارون من حفلة صيد بصحبة جعفر . فاستدعى اليه سرا هرثمـة بن أعين ورئيس الشرطة دون أن يشعر كائن من كان بوجوده فى القصر .

وجمع عدد من الرسل وأقسموا على عـدم افشاء سر ماسيكلفون به من الأوامر التى ستصدر لهم فوقفـــوا فى انتظار الاشارة المتفق عليها لامتطاء جيادهم وسافر الرسل

على عجـــل يحملون الأوامر السرية الى جميع أنحـــاء الامبراطورية الشاسعة .

واتخذت جميع الاحتياطات الواجب اتخاذها فى مثل هذه الظروف بكل دقة واحكام ودون استثناء أقل التفـاصيل .

وأحاط بالقصر الحراس المأجورون الذين يرأسهم هرثمة . وسار غيرهم من الجند لاحتلال مختلف أحيـــاء المدينة ووقف غيرهم لحراسة الكبـاري وأبواب المدينة واتخذت مثل هذه التدابير فى بغداد والرقة .

واختلى الخليفة بهرثمـــة بن أعين ورئيس الشرطة والعبد مسرور ساعات طوال لقد كانوا يدرسون شيئـا ويضعون خطة ومع ذلك لم يشعر أحد بالمأساة التى كانت تحاك خيوطها فى ظل القصر .

أسرة بنى العباس

٥

ليلة ٢٦ يناير سنة ٨٠٣ . نهاية حلم .
مقتل جعفر البرمكى . مذبحة البرامكة .

كل شىء كان هادئا فى القصر العظيم الذى كان يمتلكه جعفر والذى كان لا يقل بذخا عن قصر الخليفة . أو بالاحرى لم تغير سرعة وقوع الحوادث من مظهر الحياة الطبيعية التى كان يقضيها ذلك الوصيف . فقد كانت ردهات قصره مكتظة كالمعتاد بجموع الساعين والموظفين المغضوب عليهم الذين كانوا يلتمسون اشارة رضاء ليسترجعوا مكانتهم السابقة . فمن دساسين يتصيدون الفرص ليعرضوا خدماتهم الى خونة يسترون جرمهم وراء ابتساماتهم الى متسولين يتلمسون كلمة عفو تفوه بها

شفتا البرمكى العظيم الشأن . الى كتبة يضعون أقلامهم خلف آذانهم ومحبرتهم فى زنارهم ويحملون الترس بأيديهم . الى سعاة انهكهم التعب وتعفرت ثيابهم اذ جاءوا من جميع انحاء الامبراطورية فقطعوا المسافات الشاسعة وأهلكوا الجياد تعبا وأشبعوها ضربا ليحملوا الى الوزير فى أقرب مدى . أنباء آخر تطورات سياسته ودسائسه .

وكان البلاط يعج كالمعتاد بالصناع وتجار الجواهر والأسلحة والرواة والشعراء والجوالين والمتسولين والجواسيس ينتظرون الساعات الطوال . بل أياما بأكملها ليلقوا كلمة أو يبيعوا سلعة أو يعرضوا حلية غريبة أو يطلبوا عونا أو يوقعوا بشخص فيهلكوه . كانت الغوغاء تنم عن قيام منازعات حادة فكان عمالقة العبيد يتدخلون فى الأمر وفى ايديهم السياط فيلهبوا بها أجساد المتعنتين أو الملحين الذين كانوا يتنازعون شرف الوقوف عند

مرمى أنظار البرمكى أثناء مروره اذا هو مر بهم .

وكان هبوط الليل يحمل شيئا من الهدوء الى القصر فتهجره تلك الجموع البشرية وتتدفق من أبوابه الى الطرقات تتخبط فى ظلماتها .

...

كل شىء كان هادئا عند البرمكى المتأنق فى ليل ٢٦ يناير سنة ٨٠٣ .

وكان الشاب مضطجعا على وسائد من الدمقس الناعم ناعس الطرف سابحا فى عالم من الأحلام يستمع الى الأنغام الموسيقية التى يعزفها أفراد فرقته المختارة والى جانبه عبد مازوى يملأ قدحا من الزبرجد برحيق ذهبى فكان جعفر يرفع الكأس الى شفتيه باسما شارد الفكر عما يلقيه عليه مضحكه القزم الأعور من النكات المضحكة ... وكان لابد له أن يروي ظمأه فى ذلك المساء فى انتظار

ما يرقبه بعد لحظة قليلة ... ورويدا رويدا وضع الكأس من يده .

وأسند رأسه الى الوسائد وأخـــذ يحدق بالأزهار المرسومة فى السقف وهـو يلف حـول اصبعه شراريب زناره الذهبية وقد كان خاليـا من الخنجر اللامع فى ذلك المساء . كان جميلا بشعره الـكستنائى اللون النـاعم وجبهته الدعجاء وشفتيه النحيلتين . ولحيته المنمقة . وكان عنقه يبرز خـلال طيات ثيابه فتيا قويا مستديرا بعض الشيء . أجل بعد لحظة قليلة .

أجـل بعد لحظة قليـلة . عند ما ينسحب الموسيقيون ويخلد كل شيء الى السكون نخلف تلك العمد القـائمـة فى مؤخرة القـــاعة يوجد باب خفى لايعرف سر وجوده ولا كيفيه فتحه غيرجعفر كما أنه الوحيد الذى كان يعرف لماذا وكـيف اختفى فجأة من عالم الوجود ذلك الصانع

البيزنطى الذى اخترع هذا الباب .

لسوف يفتح هذا البـاب لتدخل منه العباسة فى زى الأمة . . . بعد لحظة ستأتى العباسة . . . كان لايزال على حبه لها . لم يخفف الزمن — ذلك المدمر الأعظم لكل شىء — من حدة شعوره .

لقد ظل قلبه جامـدا عهدا طويلا . أما الآن فقد كان يخفق حبا . وكان الحب يملأ هذا الفؤاد ويغمره فيمحو من حيـاته وذاكرته آثار لذات قديمة . لقد أصبح الآن يتذكر وهو الذى طالما تمتع — بتلك الملذات فى شىء من الاسفاف والسأم . بلى لم يعد يذكر تماما تلك الابتسامات التى كان يستمتع بها فيما مضى صباحا أو مساء بل وظهرا . تلك الابتسامات التى شغلت حيزا كبيرا من حياته الماضية المليئة بالغراميات ولم يعد يذكر جيـــدا تلك الشفاه التى ألهبت فيما مضى نار الشهوة الوقادة بين جـوانحه وسرت

مع دمائه وكانت تمثل له شبح المثل الأعلى الذى طمحت اليه نفسه وإن كان قد مات وليدا . ووجوه هاتيك النساء اللائى قضين نحبهن فى ثياب المحظيات وهن ضاحكات . لقد زال عنه كل أثر لتلك الرغبة فى الاستمتاع بمحظيات جديدات ولقد زال كل أثر لشهوات الماضى وما تنطوى عليه من فسق وفحش . ودالت وجوه النساء التى كانت تحتل ذاكرته ولم تعد تشغل من حياته الا حيزا ضئيلا ولم تترك فى نفسه شيئا من الأسف أو أثرا من تلك المتعة التى تخلفها مناظر الصور الجميلة فى الأعصاب .

لم يعد يرى من نافذة حلمه المفتوحة سوى صورة ما حكم به القدر عليه وهى صورة العباسة .

لاشىء يثير الانفعالات النفسانية أكثر مما يفاجىء والعباسة مليئة بالمفاجآت ولا شىء يثير الحواس ويحمل على الاندفاع أكثر من وجود الخطر . والعباسة تمثل

الخطر . الخطر ؟ وماذا عساه أن يهم فى نظر بعضهم أمثال أولئك الذين لا يعبأون بالحياة بغير مخاطرة .

ان الرجال أمثال جعفر الذين شربوا حتى الثمالة كأس الحب الساحر دون أن تخمدجذوة ظمئهم أولئك الرجال يقدمون على كل شيء ولا يروى غليلهم شيء . فجميع مستلزمات هذا الحب وما يحيط به يكاد لا يكفى لاشباع رغبتهم وجعفر فى حاجة الى العباسة والى وجودها والى نظراتها والى سماع صوتها . انه فى حاجه الى عقلها الراجح وفى حاجة الى حيلها وفى حاجة الى ذكائها والى عبقريتها . إنه فى حاجة اليها كحاجته الى الهواء الذي يستنشقه .

عما قليل ستأتى بصوتها الناعم وسحرها الفتان المخيف الرقيق .

وأخذ يجيل بأنظاره نحو الباب الخفى ... لقد كانت تأتيه من ذلك الباب وهى تحمل فى كل مرة وجها جديدا .

فأحيانا كانت تأتيه مفكرة فكانت لعينيها فى ظل أهدا بهـا نظرات قلقة بعيدة هى مزيج من الحذق والتردد الساذج وتارة رزينة فتعلق بصوت يملؤه الخوف على الحوادث التى وقعت فى غيبة جعفر أو على غير علم منه . إذ أنهـــا كانت خير وسيط ينقل اليه الاخبار . وتارة تأتيه صريحة فتدبر وتفسر وتختلق الحيل وتبتدع الحلول وتناقش الاحتياطات المزمع اتخاذها والاجراءات التى يجب تنفيذها بلسان السياسى المحنك . إذ أنهـــا كانت بغير ما شك انبه وامهر مساعـديه السياسيين كما كانت أقرب مستشارى هـارون وأكبرهم نفوذا . أجل . ولـكن يحدث فى بعض الأحيان أن يسقط القناع فجأة أمام جعفر فيجد نفسه أمام عباسة قد دب اليأس الى قلبها وفقدت ثباتها ورزانتها لتصبح طفلة تملكها التردد وفريسة تلوكها أنياب الأوهام سواء أكانت حقيقية أو وهمية ـــ يائسة من استطرادها لتمثيل دور ثقيل

العب، مذعورة تعبث بها يد المخاوف. متعبة وفى غاية التـــأثر .

وأحيانا تبدو مرحة مداعبة تهزأ من كل شىء ومن الجميع فتسرد الحوادث المضحكة وتقلد أصوات أصحابها وهيئة وحركات من تقلدهم فى كثير من الطيش والخفة فكانت بذلك تثير عند جعفر ما طالما أثارته فيما مضى عند هارون عوامل الاستغراق فى الضحك ولكن مع شىء من التجديد المستحب . ولقد ابتدعا فيما بينهما لغة خفية للتخاطب هى مجموعة من الاشارات بالوجه والحركات حتى يتسنى لهما التفاهم إذا ما كانا فى حضرة الخليفة ثم إذا ما اختليا ببعضهما ليلهوا بغير ماحرج ولا خوف .

فمن كان يظن عند رؤيتها فى مثل هذا المرح الساذج ونضارة الوجه أن هذه الطفلة المداعبة التى لايتعدى منظرها السادس عشر ربيعا — هى نفس العباسة التى

طرقت باب الثلاثين . نفس العباسة التى تخوض المناقشات الفلسفية العويصة وتلم الماما تاما بعلم النفس . وابنة الخليفة المهدى المثقفة ثقافة عالية وأخت الخليفة المتكبرة التى تعد نظرة العطف منها بمثابة منة عظيمة خاصة .

وابتسم جعفر بهدوء . . . أخت الخليفة ؟ لقد خدع الخليفة !! ان هى الا أخت الصديق الذى لم يفارقه وهو الخليفة . وأخت الخليفة الذي لم يعد صديقا لأنه تمثل بالآلهة الذين يتمتعون بمختلف عوامل الغيرة التى لا يمكن ادراك كنهها ونفثها الشيطان فيهم . فحرم عليه دخول الجنة التى اختصها لنفسه . فليكن . ولكن جعفر وان كان قد ترك له جميع مظاهر جنة الآلهة هذه . قد انتقم لنفسه . وانه انتقم انتقاما بديعا فأخذ يتنزه فى جنة ابتكرها الرجل فكان أشبه بأنديميون يسير برفقة سيلينيه التى نزلت له خصيصا من السموات .

ولا تتخيلوا بأن الآلهة [1] معصومون بأية قوة إلهية عن بعض الهفوات الصارخة التى ينكب بها البشر . بل وانهم غير محصنين ضد تحمل عواقب مساوئها العديدة .

كان هارون على غرار زوس — معبود الاغريق وسيد آلهتهم — عربيدا . . . ودعيا . وكان يتغزل بكثيرات من فتيات شقر وسمر ويفاخر بهن جهارا أمام جعفر أما ان كثيرات من هؤلاء النساء الشقر والسمر قد ساعدن الخليفة فعلا على الصعود الى جنة تلك اللذات فهذا لاشك فيه ولكن هناك حقيقة مؤلمة لاتدع أى مجال للشك هى أنه لم توجد واحدة بينهن قد أحبته لقد تظاهرن كلهن بلباقة بأنهن قد وقعن فى شرك غرامه وليس فى ذلك مايعدو آداب الضيافة كما أن هارون لم يصدقهن من جانبه وهو

(١) كلمة الآلهة . . للملوك والخلفاء هي بمعنى التأله والتكبر والتعاظم الذى يوجد فى النفس أحيانا وأكثر الأحيان العظمة والرصانة فى كل شيء جدا وهزلا ولكن . .

أيضا قد تظاهرلهن بالحب . وهذا من شيم الرجال وابائهم . لأن هارون لم يكن ساذجا أو غبيا . ثم لأن المرأة التى تحب تنقل هذا الشعور عفوا وهارون لم يشعر بهذا الاحساس من جانبه . لقد أحسن لجعفر فيما مضى بعوامل جسمانية حادة وضم بين ذراعيه أجساما بشدة ولكنه لم يشعر بتاتا بقلب ينبض بالاشتراك مع قلبه ولم يشرك بتاتا نفسا مع نفسه فى غمرة روحية كاملة . كان يشعر تماما بافلاسه الروحى من هذه الناحية إن لم يهتز شيء مطلقا من خبيئة نفسه ولذلك ظلت ناحية من حياته مجهولة غير كاملة . فهناك شيء قد نقصه دائما ودائما لم يستطع ادراكه . الحب شيء طالما تمناه وبعد عنه عبثا وشاهده وهو ينمو فى حياة الغير . الحب . وهذا الخليفة العظيم كان يعرف نفسه على حقيقتها على الرغم من كل شيء كما كان يري شقاء الرجل المرير أمام حياته

الخاوية . وقلبه جاف ونفسه يائسة . . . .

ففى جو الأحلام المعطر كانت نغمات القيثار والمزمار ترن حول جعفر أشبه برغبة الحنين .

فتمطع طويلا وضحك ضحكة هنيئة وساخرة معا ، وهو يفكر بأن جنة الرجل التى ابتدعها لنفسه هو جعفر البرمكى الكائن الفانى قد نبذت بدورها جميع الآلهة . وفكر مرتاحا إذ أن نفسه لم تك يائسة ولكن تغمرها انانية الرجل . فتلك الأنانية ليست فى الواقع سوى تحد للقضاء . وخفض جفونه نحو العباسة التى كان يتخيلها أربضة بين ذراعيه .

هناك ايضا ذكريات غير هذه . هناك فترات ثورة بل وغضب تغلبت فيها عوامل الغيرة على العباسة . فتعمدت عدم المجىء واعتصمت بالصمت فكان صمتها افعل فى النفس من شدة التأنيب والتوبيخ .

وهناك فترات حاول فيها جعفر أن يبدد سوء تفاهم أثارته مسألة عرضية تافهة فى مخيلة العباسة فصورته بصورة مقلقة فكانت حججه تصطدم برفض العباسة القاطع وعباراته ترتطم كالامواج على الصخور الباردة عند شاطىء الصمت المتعنت .

فكان غضب الشاب يشتعل إذ ذاك كلهب القش لتخمد فى الحال تحت تأثير ألم لاذع أشبه بالألم الذى يثيره الحديد الحامى إذا احتك بجسم حى وما هذا الألم إلا خوفه من فقد العباسة ، فقد العباسة ! فقد العباسة ! تلك الفكرة كانت تساوره فتحدث عنه ألما غريبا فيتهادى تحت تأثيره كرجل ثمل فقد العباسة ! تلك الفكرة كانت أشبه بأصابع الموت المتحجرة إذا ضغطت على قلبه الحى الساخن لتخنقه الى الأبد . كلا لم يستطع الملل أن يخفف من حدة هذا الحب أو يحل عقدته أو بعبارة أصح توجد كائنات

لا يمكن التغاضى عنها على الرغم من مرور الزمن والبون الشاسع الذى يفرق بينها وعلى الرغم من الظلال التى يمكن أن تخيم على الذكريات الساحرة . توجد كائنات يعود اليها المرء مدفوعا بعامل القدر الخفى الذى لا يمكن تفسيره أو رده وانه ليعود اليها متوسلا وقلبه مفعم بالالم .

لقد كان قلبه فى هاتيك اللحظات أشبه بالمبخرة التى يحركها المتسولون عند أبواب المعابد أملا منهم فى الحصول على الاحسان .

فلو قدر أن يكون بينكم من أدمى الحب فؤادهم فانهم يفهمون أكثر من سواهم بغير ما شك ما يثيره البعد أو الغيبة من عذاب وآلام .

كان جعفر الظامىء الواقف أمام عين جف ماؤها ينظر الى ذلك الباب الذى لم يفتح وكانت أفكاره أشد مرارة من ثمار الزقوم المتسممة التى تتساقط من رياض

الجحيم ويتولى الشيطان تقديمها الى مختاريه لماذا عساها قد تحولت عنه كالزهرة الحساسة التى ضمت أفنانها ؟ لماذا هربت منه كطير السنونو العاق ؟ لقد أعقبت الليالى ليال وخلف النهار الفجر ولسوف تمر أيام أخرى أشبه بالأيام الماضية فى انتظار إشارة أو نظرة رقيقة أتراها آتيـــة !؟

كان فى كل ليلة يرقب حفيف ثوبها الناعم وفى كل ليلة يعد الساعات التى كانت تمر وينصت بعصبية الى وقع الأقدام التى تقترب ثم تبتعد بهدوء . وفى كل ليلة كان الحب يضىء مصباح ذكرياته أمام سريره الخالى . أتراها آتية ؟

لقد عادت . إن دموع الكواكب الذهبية استطاعت ان تذلل عقبات القدر . وحمل اليه النسيم نكهة ليالى الغرام التى سلبها من القضاء . لقد عادت بعد أيام يأس وتجربة ونضال وليال بغير كرى كانت الروح فيها تتخبط وتتألم تحت عذاب

توبيخ الضمير ، إن وخز الضمير لجلاد شديد البطش .

وخفت عوامل الغضب عند جعفر كما تخف المنكبان إذا رفعت عنهما الاردية الثقيلة . وبدت العباسة فى النهاية عند حافة بابه شاحبة اللون من تأثير الآلام التى مرت بهـا وأحاطت عيناها هالة زرقاء إذ لم تذوقا طعم الرقاد واغرورقت أهدابها بالعبرات فجمد جعفر فى مكانه وأخذ ينتفض كالنائم إذا ساورته الأحلام المزعجة وجمدت شرايين الحياة فى جسمه .

ومحا الاسف آثار التأنيب . وبغتة حدث مالم يحدث من قبل بتاتا ...

إن فى الصمت لحظات تخيم عليها نشوات لا يمكن التعبير عنها فتلتقى عندها الارواح . وعجز جعفر عن اختراق حجاب هذا الصمت السحرى الذي يعبر احيانا عن وثبات القلب واندفاعه خير من الالفاظ والعبرات

فمد ذراعيه « للعباسة ! » وتعانقا صامتين مأخوذين بجنون العودة وإذ ذاك شعرا فجأة بالسرور يسرى فى عروقهما والسحر يغشى فؤادهما فى ظل تلك السعادة التى حملتهما بين أعصارها . .

...

وتاه جعفر فى أحلامه فلم يسمع صهيل جياد رجال الحرس الذين أحاطوا فجأة بقصره وحاصروه ولا رنين سلاح الجند المأجورين . لم يسمع صليل السيوف ولا وقعها على أعتاب العرصات ولا قعقعة المهاميز درج سلمه ولا صوت الأبواب التى كانت تفتح بعنف أمام هرثمة ابن أعين المدجج بالسلاح .

مقدار لحظة . . . وقف رجلان وجها لوجه يتناظران وسمع جعفر البرمكى هرثمة بن أعين يتهمه — بأمر الخليفة — بالخيانة العظمى

والزندقة [1] .

وجحظت عينا جعفر وتطاير منهما الشرر ورفع يده عفوا الى زناره الذى كان خاليا من السلاح فى ذلك المساء .

« تلك مداعبة . إن أمير المؤمنين يمزح على جارى عادته »

على أن صوت هرثمة القاطع أدمى أنانية جعفر

---

(١) بينما كان جعفر يستمع الى نغمات الموسيقى على أثر عودته الى قصره فى المساء رأى فجأة مسروراً كبير أغوات الخليفة وهرثمة بن أعين يدخلان عليه على رأس طغمة من الحراس وجذباه خارج القصر وعند ما ذهب الطبيب المسيحى بن جبريل الى قصر الخليفة بعد انقضاء نصف ساعة شاهد رأس البرمكى موضوعا فى طبق أمام أمير المؤمنين وقد كان ذلك إيذانا بسقوط أسرة البرامكة . فقد اعتقل جميع أفرادها فى الليلة نفسها وألقوا فى السجون وعزل أنصارهم فى الأقاليم بأوامر مستعجلة وصودرت جميع أملاكهم ولم يستثن منهم إلا محمد بن خالد البرمكى . . . تاريخ العرب للمؤرخ الفرنسى هيوارت الجزء الثانى ص ٢٩٤ .

الثائرة بعبارات محتومة نهائية كان يلقيها متأنيا ثابتا .

وفى أقل من لمح البصر كف عزف الموسيقى وهرب العازفون واختفى العبيد ولم يعد يسمع غير صوت مسرور الشاذ ولعناته إذ كانت تمزق حجب الصمت الذى أعقب اتهام هرثمة . وظل جعفر عظيما فى وسط نكبته وسقوطه ورفع صوته المتكبر الذى لم يؤثر عليه الخوف ولم يرتعد ونادى اليه حرسه الخاص .

واندفعت نحوه الأقدام . . . ولكنها كانت أقدام جنده المأجورين وهم أولئك الذين خدموه بالامس وكان اليوم يعملون طوع أمر هرثمة ويغيرون على قصره .

وأدرك المحظى . فى تلك اللحظة . ان الحظ قد فارقه وادار نظراته لآخر مرة نحو الباب الخفى . . . وهوى خنجر هرثمة بسرعة البرق على صدر البرمكى فخر صريعا إلى الابد عند أعتاب عرش . . .

وكان الجند المأجورون يغيرون على منازل البرامكة المحكوم عليهم ويطاردونهم ويمزقونهم ويقتلونهم بغير هوادة يتبعهم شعب ينهب ويسلب .

وكأن الأرض قد فغرت أفواهها ولفظت من احشائها جموع شيطانية من سكان الجحيم فاكتظت بهم الطرقات وهم ينهبون . حتى ليخال أن الجن ثملت بنشوة فظيعة فانتزعت بأيديها آخر آثار الجمال لتحلى بها شناعتها المخيفة .

وخلت الجماهير من كل ما هو اسلامى حتى ليخال أنها بعثت فجأة من رماد بابل الكافرة وسارت اثر الجنود المأجورين حتى أدركت قصر الخلفاء حيث جلس هارون حاسر الرأس جامد النظر يحدق فى رأس وصيفه المقطوعة .

وارتفعت الصيحات فى الخارج وزعزعت الفضاء

كاللعنات وارتفعت نيران المشاعل . وأضاءت الجدران بأنوارها كالحرائق حتى ليخال أن الشرر المتطاير والدخان المتصاعد منها يخرج من أتون هائل ينبعث دخانه من الارض . حيث تقوم الشيع الشيطانية بطقوسها الوحشية السرية . مرتفعا نحو السماء الحاقدة ليخفف من غضب بعض الآلهة الجهنميين الوثنيين بتلك الذبائح والقرابين التي لافائدة من تقديمها !

دهماء لا حياء عندها ولا خجل تلتف مضطربة حول جثة جعفر بغير رأس تحت نوافذ القصر وأنظار العباسة الزائغة التي عرفت فيها جثة البرمكي الجميل المشوهة وقد حملها الجند المأجورون على أيديهم وسعوا بها نحو الجسر (١)

---

(١) يقول المؤرخ بيرون أن جعفر شنق على جسر بغداد وقد عرض رأسه في أحد أطراف الجسر وعرضت جثته في الطرف الآخر . ويدعى مؤرخون آخرون أن مذبحة البرامكة وقعت في الأنبار على ضفاف الفرات .

إذ ذاك علت صيحة . صيحة واحدة . صيحة انتزعت
من أحشاء معذبة وعلت على جميع الصيحات. تلك الصيحة
الوحيدة الفذة التى دوت كأنها صوت الذعر أو نداء
الجنون ومزقت الآذان والقلوب وظلت الى الابد ماثلة
لجميع من سمعوها وفهموها . تلك الصيحة هى صيحة المرأة
أمام حبها الذى ضحى به !!

وأستولت على موكب الاشقياء هزة اجرامية
فى أبشع صورها وسرت فيه ضحكة منكرة ارتعدت لها
مفاصله كأنها رجفة الجن ازاء سقوط الوصيف وزواله
النهائى .

إيه ! ما أفظع انشراح الجماهير إذا كان هذا الانشراح
فسقا ورجساً من صنع الشيطان اللعين .

فتلك الضحكات الوحشية تثلج الضمائر الثائرة .
وتلك الاهانات لم تعد إهانات لأنها تحلى من سقطوا

بأحسن ما تحليهم هالات المجد . والسباب الذى يحاول
أولاد العار أن يسيئوا به إلى احدى الذكريات ويدنسوا
به حياة مسها الحب وغفر لها الألم ذلك السباب لا يضع
فوق جبين المحكوم عليه الشاحب وصمة العار ولكنه
يكللها بهالة الشهداء .

. .

واستمر اضطهاد البرامكة فى تلك الليلة واليوم
الذى تلاها فى جميع انحاء الامبراطورية . فسلبت قصورهم
وحرقت وصودرت ممتلكاتهم وكنوزهم ووضعت
الأغلال فى أيدى نسائهم وخدمهم وعبيدهم وسيقوا
صفوفا نحو أسواق الامبراطورية المختلفة لكى يباعوا .
وتمكن بعضهم من الهرب متخفين فى أزياء مختلفة
ولكنهم عرفوا فمروا بحد السيف . والذين نجوا منهم كانوا
يسيرون مهلهلى الثياب مضطهدين فيختفون فى الاركان

المظلمة كالحيوانات المضطهدة . وسار سواهم فى سكون الصحراء فتاهوا فى فيافيها ولجأ غيرهم إلى شواطىء بعيدة وبلاد مجهولة فأعياهم الضنك وماتوا على قارعة الطريق حيث كانوا يتسولون فيمدهم المارة بالاحسان ووارى المجهولون جثتهم التراب فاخلدوا إلى راحة الموت ..

ماذا حل بالعباسة ؟ لا يعلم أحد عنها شيئا ولم ينطق أحد من المؤرخين باسمها وأسدل الستار عليها إلى الأبد باختفاء البرامكة . لقد اختفت بدورها فى عدم الاشياء التى تزول كذكرى السعادات الضائعة المؤلمة ولن تعود ،

اسرة بنى العباس

٦

الخليفة الحاكم بأمره . صراحة علية أخت الرشيد .
سؤال فى منتهى الصراحة . مشروع حفر قناة السويس
تبادل أسرى الحرب بين هرون وامبراطور بيزنطه.
استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الخليفة وشارلمان .
الهدايا . المحظية مريضة . وخز ضمير أو كآبة . موت هارون

لم يكن هناك من يستطيع أن يناقش الطريقة المفجعة التى كان يلجأ إليها الحكام فى العصور المتقدمة لازالة الأوشاب العالقة بأداة نظام الحكم لينقذوا هذا النظام من خطر يهدده نتيجة ضعف سياسى كانوا فى الغالب سببا فى خلقه وايجاده . ويلوح على النقيض من ذلك أن مؤرخى تلك العصور انما كانوا يهللون لأعمال لايجرأون

على انتقادها أو اظهار فسادها .

لم يكن الحاكم المستبد الذي يتمتع بسلطة مطلقة لا ينازعه فيها منازع فى حاجة الى تبرير تصرفاته . لأنه لم يك مضطرا إلى تقديم حساب عما يفعله . واذا كانت به الى جانب ذلك حاجة الى التذرع بحجة للدفاع عن نفسه فحجة المصلحة الاجتماعية أو مصلحة الدولة كانت دائما فى متناول يده يلجأ اليها متى شاء لتهدئة اضطرابات ضميره اذا سلمنا جدلا بأن للحاكم الظالم المستبد ضميرا يضطرب أو فؤادا يشعر بالقلق . وهكذا لم يكن شعور النقمة الذى كان يكنه الحاكم أحيانا بغير ما دافع ولا مبرر لبعض وزرائه ممن كانوا يستفزون سخطه . وكثيراً ما كان هذا السخط مسرحا لخاتمة دامية . ليدهش أحداً أو يثير اهتمام احد .

لقد قال نابليون بونابرت بعد مائة قرن من ذلك

العهد . إن خمسة وتسعين فى المـــائة من المحظوظين عند الملوك ماتوا شنقا . وهذه حقيقة لاجدال فيها وقد قـدم لنا التاريخ حججا وأدلة كثيرة عليهـا سواء فى الشرق أو فى الغرب (١)

ولم يكن معظم الظالمين المستبدين بأمرهم الذين كانوا يتخلصون من ذوي الحظوة عندهم لأقل الاسباب وأتفهها ، ليثقلوا ضمائرهم بالتأنيب أو ليأسفوا على عملهم إذا ماخمدت

(١)

١ ـ روبير ديفيرو كـنت اسكس وحظى الملـكة اليصـابات تودور وقد تآمر عليها فأعدم فى عام ١٦٠١ .

٢ ـ هنرى ديفيات : مركيزدىسان مارس وحظى الملك لويس الثالث عشر وقـــد تآمر بايعاز من اسبانيا لاعلى ملك فرنسا الذى تخـــلى عنـــه بل على الـكردينال ريشليو فأمر باعدامه بتهمة الخيانة العظمى عام ١٦٤٢ .

٣ ـ جان ماركيز دى موتالديسكى حظى الملـكة كريستين ملـكةالسويدوقد عملت هـــذه الاخيرة على اغتيـــاله فى فونتينبلو عام ١٦٥٧ فأكرهت على مغادرة فرنسا .

ثورة غضبهم . أما هارون فقد ندم على ما اقترفت يداه . وهو وإن لم يكن يتحدث عن جرمه إلا ان ذكراه ظلت عالقة فى ذهنه لم تفارقه لحظة واحدة بدليل ماطرأ على مسلكه من الغرابة والجنون لحاجته الدائمة الى النشاط مثلا . وهى حاجة استحوذت عليه منذ عام ٨٠٣ أخذت تتطور إلى شغف جنونى بالتنقل والأسفار . فكان لايؤم بلدا حتى يسرع إلى مغادرتها ليطرق غيرها . وهكذا كانت سرعة اسفاره ومفاجآتها أشبه ماتكون بالفرار والهرب منها بالرحيل والسفر . وكانت قراراته العنيفة وعدم استقراره النفسى وجزعه الفجائى من عزلة كان فيما مضى يسعى اليها تدل على حالة نفسية متداعية متناقضة تمزقها منازعات داخلية وهى منازعات أصبح فريستها وقلما تمكن من التغلب عليها .

لاشك فى أن الخليفة كان ملكا على امبراطورية

مترامية الاطراف وقد ازال بين عشية وضحاها كل أثر للبرامكة من دولته . على أن هـــذا العاهل المطلق لتلك الامبراطورية الشاسعة أخذ يفقد سلطانه على أعصابه شيئاً فشيئاً .

فعند هارون كان الرجل الحاكم فى صراع عنيف مع الرجل العادى . فلم يكن هارون هو ذلك الخليفة الذى انزل صارم العقاب بخدم وقحين متهتكين . ولم يكن الخليفة هو ذلك الرجل الذى قتل الصديق . ولكنه كان ذلك الهارون الذى نزع عنه وشاح الملك الذى كان يمكن أن يستتر وراءه ويتذرع بما يتحلى به من اعذار سياسية قد يغتفرها التاريخ ووقف أمام ضمير — ضعيفا كان أو قويا — إلا أنه ضمير لا يقبل عذرا ولا تعقيبا .

إن اختفاء جعفر من حياة هارون الخاصة قد خلفت فى نفس هذا الاخير آثار انفعالات نفسية ظاهرة من

جراء كبرياء ثائر أبعد أن تكون تبكيت ضمير من تأثير
جرم قد اقترف . وقد طالما رغب هارون فى أن يشير
بينه وبين الماضى ضجة حياة جديدة صاخبة علها تمحو من
صورة ذكريات ماض اليم فسعى وراء حياة اللهو يستجديها
ويسألها النسيان . على أن القرابين السخية التى كان يقدمها
إلى إله الخمر باخوس لتحمل إلى نفسه طمأنينة زائفة أو
على الأقل لتفقده حواسه ومشاعره لم تساعد إلا على
النيل تدريجيا من قوة جهازه العصبى المضطرب إذ كان
هارون يشكو الأرق .

وعند ما كان الاعياء يأخذ منه مأخذه ويقضى عليه
أحيانا باعتزال حياة اللهو الملتهبة الصاخبة . كانت كراهيته
للعزلة تحمل الاماء الندامى والمضحكين على الالتفاف
حول مضجعه الذى هجرته الراحة والطمأنينة . فكان
ابو نواس يقضى الساعات الطوال ويحاول عبثا أن

يستعرض قاموس نكاته و ترهاته الذى لا ينضب لاضحاك من لا يضحك وكذلك « مريضه »[1] محظية هارون التى كان يقول عنها « إن كل ساعة تمر دون سماع مريضه تعد ساعات ضائعة » كانت تحاول هى أيضا أن تشعشع ليالى هارون المؤرقة بأعذب أغانيها ولكن على غير جدوى .

وفى عام ٨٠٥ بدأ هارون يتودد إلى شقيقيه[2] المنصور وابراهيم فقربهما اليه وأشركهما فى ملاهيه وملذاته سواء بدافع الترويح عن نفسه أو بدافع التآلف العائلى وهو التآلف الذى نبذه عن حياته منذ وفاة جعفر واختفاء العباسه .

(١) مطربة هارون الرشيد ومحظيته وقد ذهب حتى الى الاقتران بها ويقول بعض المؤرخين أن المطربة التى تزوجها هارون كانت تدعى « عريب » لا « مريضه »

(٢) ابراهيم والمنصور وقد تآمر كل منهما بدوره فى مارس سنة ٨١٦ ويناير سنة ٨١٧ على ابن شقيقهما الخليفة المأمون ولكن بدون جدوى .

وفى أحـــد الأيام بينما كان هارون يشكو الأرق لشقيقته الصغرى « عليه » التى كان يشعر نحوهـــا بميل قوى بسبب صراحتها إذا بالأميره تفاجئه بهذا السؤال :

مولاى . إنى لا أراك هادئا يوما واحدا منذ أن ضحيت بجعفر فلأى سبب من الاسباب أمرت إذن بقتـــله ؟ .

إذ ذاك تفجرت ينابيع حزنه أو بالأحـــرى ألمه المكبوت الذى طالما حاول أن يخفيه ويتستر عليـــه وتجلت فى تلك العبارة التى رد بها على سؤال شقيقته :

— إيه يا أختاه . أى نفع يعـــود عليك لو عرفت السبب ؟ إلا أننى لو ساورنى الشك فى أن قميصى على علم به لمزقته إربا إربا

وكان هذا هو التلميح الوحيد الذى بدا من هارون لموت صفيه .

على أن الخليفة كان يحمل فى قرارة نفسه قوة خفية من النشاط والعزيمة لن يلبث أن يبذلها فتمالك نفسه وأخضعها لارادته وأخذ فى حل مشا كل امبراطوريته وتصريف أمورها المرتبكة .

فمنذ عام ٨٠٤ مهما بدا ذلك مدهشا . افتتن هارون وبهر كما أفتتن قبله فاتح مصر عمرو بن العاص بمشروع جرىء لم ينفذ إلا بعد ألف عام وهو مشروع حفر قناة السويس . ولكنه عدل عن فكرته بعد عام . لنفس الأسباب التى حالت بين عمرو وبين تنفيذه . فشق قناة السويس كان لا بد أن يجلب أسطول بيزنطا الى البحر الاحمر إن عاجلا أو آجلا .

ولما كانت الحروب المستمرة بين البيزنطيين والعرب قد سببت خسائر كبيرة فى الرجال بين الفريقين المتقاتلين بذل هارون — فى أوائل عام ٨٠٥ جل اهتمامه لافتداء

الاسرى العرب أو مبادلتهم مع امبراطور بيزنطه بالاسرى البيزنطيين . وبعد مباحثات طويلة استغرقت شهوراً عديدة وقع اتفاق بين الخليفة والامبراطور نيقيفور الأول وفى مدينة لاموس [1] الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط تمت عملية تبادل الاسرى تحت اشراف عبد من معاتيق هارون يدعى ابو سويلم فرج وبصحبته فيلق مؤلف من ١٥ الف رجل .

وقد قال المؤرخ الفرنسى « هيوارت » أن هذه الجموع مكثت اربعين يوما ولكن اثنى عشر يوما كفت لافتداء ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير مسلم أتى بهم البيزنطيون على ظهور سفنهم وهى مزدانة بأجمل الزينة وأروعها واعظمها تأنقا ورشاقة .

وبعد انقضاء أربعة أعوام أي فى سنة ٨٠٨ اتفق

---

(١) لاموس : مدينة تقع على مسافة ٣٥ ميلا من طرسوس .

هارون وامبراطور بيزنطه على تبادل أسرى آخرين وقد أنجز هذه العملية فى هذه المرة ثابت بن نصر وهو نائب الخليفة فى سوريا وقائد قواته عند تخوم الشام . وقد افتدى العرب أكثر من ألفين وخمسماية أسير وتغنى الشعراء بمجد هارون الذى أنقذ من سجون بيزنطة بفضل جوده وسخائه أسري لم يكن أحد يأمل في رؤيتهم واعادهم الى دار الاسلام .

وفى عام ٨٠٦ استأنف هارون علاقاته الدبلوماسية مع شارلمان امبراطور الغرب وهى علاقات كان قد باشرها فى عامى ٧٩٧ و ٨٠١ .

ويحسن بنا القول أن الخليفة لم يعمل على استئناف علاقاته مع شارلمان إلا على أثر عودة المنازعات بين البيزنطيين والعرب الذين دفعت بهم حملاتهم حتى أسوار

اموريوم[1] فى وسط آسيا الصغرى ثم الى جنوب أزمير وكان الغرض الذي يرمى اليه هارون من وراء استئناف تلك العلاقات هو الايقاع ببيزنطة إذكانت تطمع دائمـا فى بسط حمايتها على المسيحيين فى الديار المقدسة .

فى عام ٧٩٩ أعطى هارون امبراطور الغرب حقـا اسميا فى حمـــاية المسيحيين المقيمين فى القدس واعترف بهذا الحق وأيده رسميا عام ٨٠١ .

(١)

١ ــ اموريوم ، احــدى مـــدن فريجيا القديمة وهي تقع جنوب شرق باسيمونت وقد ضمت فيما بعد الى اقليم غلاطية وهى تحمل اليوم اسم « سيفرى هيسار » التركى . ويقال انها كانت مسقط رأس الكاتب اليونانى « ايزوب »

٢ ــ عندما بلغ شارلمان تسامح هارون الرشيد وسعة صدره أوفد اليه عام ٧٩٩ مندوبا فوق العـادة ليعرب للخليفة العظيم عن رغبته فى أن يكون حامى حمى المسيحية فى الديار المقدسة ولم يخطىء شارلمـان فى تقديره فقد منحه هارون الرشيد القبر المقدس وأعطاه مفاتيحه مع علم القدس (الأب دى هينو)

٣ ــ جاء فى تاريخ رئيس دير « سان جال » أن الامبراطور شيد فى عام ٨٠٠ مأوى للحجاج الفقراء فى القدس (تاريخ رهبان « سان جال »)

وقد استأنف هارون علاقاته بالغرب عام ٨٠٦ بارسال وفد عهد اليه بأن يرفع الى الامبراطور هدايا فخمة وتحفا ثمينة لم تقع أعين الغرب على مثلها منذ عهد القياصرة الرومان المشهورين بالجاه والبذخ . وقد يبدو لنا بعض هذه الهدايا عجيبا إذ كان يشتمل على حيوانات نادرة أو على الافيال مجهولة فى أوروبا فقد أثار مثلا مرور الفيلة والسباع والنمر والفهود والقردة فى أقفاصها ذعرا حقيقيا بين سكان مدينة شارلمان الساذجين ولم يكتف الخليفة بارسال تلك المجموعة من الوحوش المفترسة بل بعث كذلك بقطع لاتحصى من الاقمشة المطرزة بالذهب والفضة والدمقس والحرائر . وآلات موسيقية وثريات وكؤوس ذهبية ومائة خيمة مختلفة الالوان من الكتان المصرى فضلا عن المنتجات الطبية والبخور والتوابل والروائح العطرية وأخيرا الساعة

الميكانيكية الشهيرة وهى أول ساعـــة من نوعها عرفت فى أوروبا وقد بهرت هـــذه الساعة الامبراطور العظيم لدرجة أنه دعا الى بلاطه جميع أمرائه وأتباعه والاساقفة والقساوسة ورؤساء الاديرة لرؤية هـــذه الأعجوبة التى بعث بها الشرق ولم يشاهد الغرب مثلها [1] .

ولكن عندما وقعت أنظـار علماء الدين الذين ألفوا ساعاتهم الرمليـة على هذه الآله الميكانيكية استولى عليهم الذعر والجزع فجأة واجمعوا الرأي على أنها من صنع الوسواس الخناس .

وفى أواخر عام ٨٠٦ اثار تعسف عيسى بن على والى خراسان شكايات الاهـالى ومظالمهم الى حـد كبير اضطر معه الخليفة الى استدعاء واليه على جنـاح السرعة

(١) من أقوال اجينهارد سكرتير شارلمان ومؤلف تاريخ حياته وقد عهد اليه لويس الأول بعد وفاة والده شارلمان بتربية نجله لوتير فى مانجـو ؟ ؟ ؟ عام ٨٤٠ .

وان يكن البرامكة قد زالوا من عالم الوجـــود الا أنهم خلفوا وراءهم مريدين كانوا يحذون حذوهم وينسجون على منوالهم وعلى الرغم من ان الخليفة كان كثيرا ما يبدل من حكامه فى الولايات فلم تكن ايدى الولاة الجدد لتخف وطأة عن اسلافهم او بطشا .

ولم ينقذ عيسى بن على رأسه ومنصبه والجزء الأكبر من أسلابه الا لأنه ألقى بنفسه على اقدام مليكه مستغفرا . لقد أصبح هارون يغض الطرف عن أخطاء الآخرين لالشىء إلا لأن تغييرا خفيا بدأ يطرأ على قرارة نفسه ويبدل من غرائزها وطباعها فكل شىء كان يثير سأمه وضجره وكان يبدو مستخفا زاهدا بأعراض الحياة تاركا لمن حوله من الرجال ما يتطلعون اليه من كسب للمال وطمع فى الربح .

وفى إحدى الليالى عاودت هارون نزعة من نزعات

العربيد التى كانت تؤثر عليه فيما سلف وسرت فى جسمه إذ كان ثملا نشوان الى حد الذهول بصوت مريضه التى تعلق بها كما يتعلق الغريق بحبل النجاة . وقد أظهر كلفه وهيامه بها بمنة ملكية ولكن سرعان ماعاودته عاطفة الرجولة فأسف على ما أقدم عليه . لقد حرر مريضه وأعتقها فالتزمت مريضه جانب الصمت وابتعدت بعد أن اسدلت النقاب على وجهها ولما افاق هارون من دهشته أدرك غرض محظيته فهى لم تعد امته بل اصبحت حرة طليقة . أترى هارون قد أتى عملا طائشا احمق ؟ وانه لمن المدهش لو حاولنا ان نعدد الأخطاء المناقضة للعقل ومبادىء الاخلاق التى ارتكبها فذلك الرجل الذى سلب شقيقته[1]

---

(١) يدعى بعض المؤرخين أن العباسة لم تزف قط الى جعفر البرمكي زفافا شرعيا وأن الخليفة قرر قتل جعفر عندما اكتشف مسلك شقيقته الشين مع هذا الاخير ولا سيما أنه لم يكن فى استطاعته أن يزوج شقيقته من برمكي زنديق. أما اسباب هذه المأساة فلا تزال على الرغم من ذلك غامضة كل الغموض ==

حقوقها الزوجية أو حال دون قيامها بواجبها . سوف يؤدي واجبه . ليس فى إمكانه أن يأتى منكراً وهو رابط

== وأما العباسة فقد قال المؤرخون فى أمر صلتها بجعفر بن يحى البرامكى ماقالوا وذكروا أن هذه الصلة هى التى حملت الرشيد على قتله جعفرا وإيقاعه بالبرامكة كذلك كان الناس يعرفون قبل بن خلدون فلما أنشأ هو مقدمة تاريخه جعل هذا القول من أوهام المؤرخين وقال فى سبيل ذلك : « وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبوتها وجلالها وأنها بنت عبدالله بن عباس ليس بينها وبينه الا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده . العباسة بنت محمد المهدى بن عبدالله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء بن عبدالله ترجمان القرآن بن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم . أبنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز وصحبة الرسول وعمومته وأمامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها . قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الصرف ومراتع الفواحش . فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى الاعاجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش . وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وبضبع أبيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الأشراف . وكيف يسوغ للرشيد أن يصهر الى موالى

الجأش ثابت الجنان . إن الرجـــل ليستطيع أن يقترف جرما . أما الخليفة فلا يستطيع أن يرتكب فحشا وزنا .

== العجم على بعد همته عظم آبائه ؟ ولو نظـــر المتأمل فى ذلك نظر المنصف لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها واستنكره ولج فى تكذيبه . وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيـد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه على سلطانه .

ذلك قول ابن خلدون . وما كان أولانا بما رآه وأذهبنا فيما ذهب اليـــه لولا أنه نافش المؤرخين بمشاعره وبعض عقله وراح يعتمد على فخـــامة اللفظ وزنة الأيقاع وكل ذلك ليس خليقا بأن يمحو خبرا ذاع ويقطع حـــديثا نمى . وكان أولى بأبن خلدون حين ذكر العبـاسة شرف المنصب وعلو النسب أن ينظر نظرة الى الأم فهى وحدها مرجع ماعليه البنت من علو أو هوان . بل مرجع ماعليه الولد من بعد همـــة أو فتور عزيمة . تلك الأم التى نزع الرسول الامين صلى الله عليه وسلم اليها بقوله : « انا أبن العوانك من سليم » وكل مايتصل به الابناء من عظمة البيت وشرف الاسرة ونبل العشيرة أنمـــا يتضاءل فيما يرتضعونه من أمهاتهم من لؤم وخمول . ومن أم العبـــاسة ؟ أليست مغنية من القيان اشتراهـــا المهدى وكان من أمرهـــا أن أصبحت أم أبنته ؟ أنى قدرة هذه أن تنشىء فتاة تحفظ ما لبيتها المعظم من سمو وجلال ؟ ==

لقد أتى عملا طائشا أحمق . هذا صحيح . فما عساه إذن أن يفعل الآن ؟ إن عنصر الرجل فيه سوف يرتكب

= وان النفس لاتطمئن لما ذكر ابن خلدون عن نكبة البرامكة فأن المثلة الشنعاء التى مثلها الرشيد بجثمان جعفر من تمزيقه ثلاث فلذات وصلب كل واحدة على باب من ابواب بغداد بعد ما كان من فرط حبه له وتقريبه منه تقريبا لم يكن بين أخوين أليفين - كل ذلك لايكون إلا حين تتقد الغيرة وتهتاج الحفيظة ويصاب العرض وما أظن ما قال القائلون من احتجان الاموال وممالأة بنى على بن ابى طالب إلا تمويها للامر وإبلاغا للعذر ولو كان ذلك حقا لقتل البرامكة على سواء ولم يختص واحداً بالقتل ويترك الباقين رهائن السجن . بل كان أولى بالقتل يحى ابو جعفر لأنه هو الذى استن لبنيه سياسة الرفق والمودة للعلويين .

وكان بيت المأمون يقوم على العلم والحكمة . وعلى المرح والدعابة كذلك . وكانت ابنته خديجة تجد فى أثر عمة أبيها علية من ارسال الشعر في التشبيب وابتكار الغناء والتلحين . ومن قولها فى خادم من خدم أبيها .

بالله قولين لمن ذا الرشا · اثقل الردف الهضيم الحشا
أظرف ما كان اذا ما صحا · وأملح الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له · ارسل فيه طائرا مرعشا
ياليتنى كنت حماما له · أو باشقا يفعل بى ما يشا
لو لبس القوهى من رقة · أرجعه القوهى أو خدشا
=

شططا آخر لا يقل حماقة بتزوجه من مريضه .

إن الاخلاق أيها الشاب لأشبه بهيفاء يانعة تحمل عبئا ثقيلا من الهفوات بين طيات ضميرها وإن العقل قل أن يدرك ما يسمح بفعله . ومهما يكن من شيء فان هارون قد تغير فهل كان ذلك منه بدافع التوبة ؟ أم بعامل الضجر ؟ إن الرجل الذى تملكه الضجر واستولت عليه الهموم قد لا يكون نادما . إن السآمة التى استحوذت على هارون فى أواخر أيامه أو بالأحرى المرض الذي حطم

= وحسبنا أن نقف بالقلم عند هذا الحد ونكتفي منه بأن نقول أن نساء بيت بنى العباس قد أخذن مآخذ الرجال من السرف والاندفاع . وما نريد أن نقول أنهن تجاوزن المرح والدعابة . إلى ماوراءهما من العبث والفساد واذا زلت هنالك قدم أو طمحت عين أو لفظ لسان فأن ذلك لايصدع البيت ولا يثلم الاسرة إلا أن يقال أن طرف الحضارة ورونق النعيم قد رفعا عن تلك البيئة كلفة الدين وخلعا عنها عذار الوقار .

(من كتاب المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها جزء ثالث من ذيل الصحيفة ٨٨ الى نصف الصحيفة ٩١) .

جسمه وأنهك قواه قد دفع به الى الحد من لذات المائدة والتمادى فى تعاطى الخمر. فهو لم يكف منذ عام ٨٠٧ عن تناول الخمر فحسب بل بدأ يدعو رجال حاشيته والمقربين منه الى التشبه به والتزام جانب القناعة والتورع. لقد أصبح هارون مبشراً. فقد أخذ فجأة ينحو باللائمة على أبى نواس ويوجه اليه اشد عبارات اللوم بسبب سكره الدائم. ولكن هذا الأخير كان يرى فى أقوال الخليفة دعابة سمجة تساق اليه.

أجل لقد تغير هارون. فقلة اكتراثه أو بالأحري وهن عزيمته قد انتزعه فى عام ٨٠٧ من احضان عالم كله ضجيج وحركة وملذات زائلة ومسرات فانية ليرميه بين أحضان العزلة التى كان فيما مضى يهرب منها واصبح الآن يسعى اليها ولا ينعم إلا فى ظلها. فها هو ذا يتنزه وحيدا فى ظلال اشجار السرو فى الرقه وفى فيأة كرومه

فى الربع . وها هو ذا يقضى الساعات الطوال . وحيدا فى مقصورات المرمر المنقوش المقامة على ضفاف الفرات لا أنيس له ولا جليس فيحدق فى لجين الميـــاه المترقرقة وهى تنساب تحت نظراته كما لو كان يرجو أن يسمع فى خريرها صدي قهقهة الماضى ورنة صوت العباسة ونغماته المستحبة العذبة . ها هو ذا يسير وحيداً يتهـــادى بين شجيرات الورد فى حدائقه الغنـــاء بمدينة الأنبار حيث كانت تنبعث فى صدره . عند كل منعطف من منعطفاتها . ذكرى تضحية الظالم لجعفر وتأثيرها الأليم . لم تجعـــل العزلة منه رجلا حكيما بل صيرته شيخا وشيخا هرما خط الشيب شعره قبل أوانه .

وفى عام ٨٠٧ أدى هارون فريضة الحج ولم يكن يصحبه إلا عبيد قلائل أعتقهم فى عرفات وكان قد تعود فى كل سنة أن يخرج إلى الحج يحف به أفراد بيته

ورجال حاشيته وحشمه . وقد شاهـــد صحبه القلائل الخليفة العظيم وهو يبكى فرفرف عليهم سكون رهيب .

. . .

وعند عودته إلى بغداد بلغته أنباء سيئة فقد اضطرب الأفق فى خراسان من جديد إذ عاودته الفتن ولم تلبث نيران الثورة أن اندلعت فيه من أقصاه إلى أقصاه فقد اتفق شعب خراسان المسلح مع القبائل التركية والتف حـــول رافع بن الليث وهو من سلالة حاكم أموى سابق يدعى نصر بن سيار ونادى به ملكا فتحرج مركز عيسى بن على حاكم هارون وازداد تحرجا على تحرج : لقد كان ضميره مثقلا بالجرائم والأخطاء ولو أنه استطاع أن يدلل على ما ارتكبه بما لديه من الاساليب والحجج إلا أن القوات كانت تعوزه ليدفع عنه شر عواقبها . وسار رافع بن الليث على رأس جيش أغلبـــه من التركمان

واشتبك مع عيسى بن على فى معركة ضروس بجوار مرو وهزمه شر هزيمة ثم قتله وأوشكت الحالة أن تزداد تفاقما لو لم يكن هناك من يعالجها بحزم وعزم .

ففى عام ٨٠٨ بادر الخليفة بارسال نجله عبد الله . وهو يحمل لقب أمير خراسان على رأس جيش جرار مؤلف من ثلاثين الف رجل إلى مرو . وقد قال هارون إلى هذا الشاب الرزين الثاقب النظرات الذى كان يلمس فيه عزيمة لاتفل ويرى فيه مجد الغد « لسوف تضرب للعالم مثلا عظيما من بعدى » .

وعلى أثر وصول الامداد من سوريا بعد بضعة أشهر سـار هارون إلى خراسان على رأس الجيش الرئيسى يصحبه نجله محمد ولى عهد الامبراطورية .

ولكن هارون مرض حال وصوله الى خراسان إذ أصيب بداء مجهول لم يتبين المؤرخون سره وهو داء عضال

استنفد قوى جسمه المنهك . وفى اليوم الثالث من شهر جماد الثانى عام ١٩٣ — ٢٤ مارس سنة ٨٠٩ توفى الخليفة العظيم — ويحتمل أن تكون وفاته بالشلل . فى مدينة طوس وهو فى الخامسة والاربعين من عمره بعد أن ذاق رحيق موت بطىء مؤلم حتى الثمالة .



فهرست





الثمن ٢٥ قرشاً